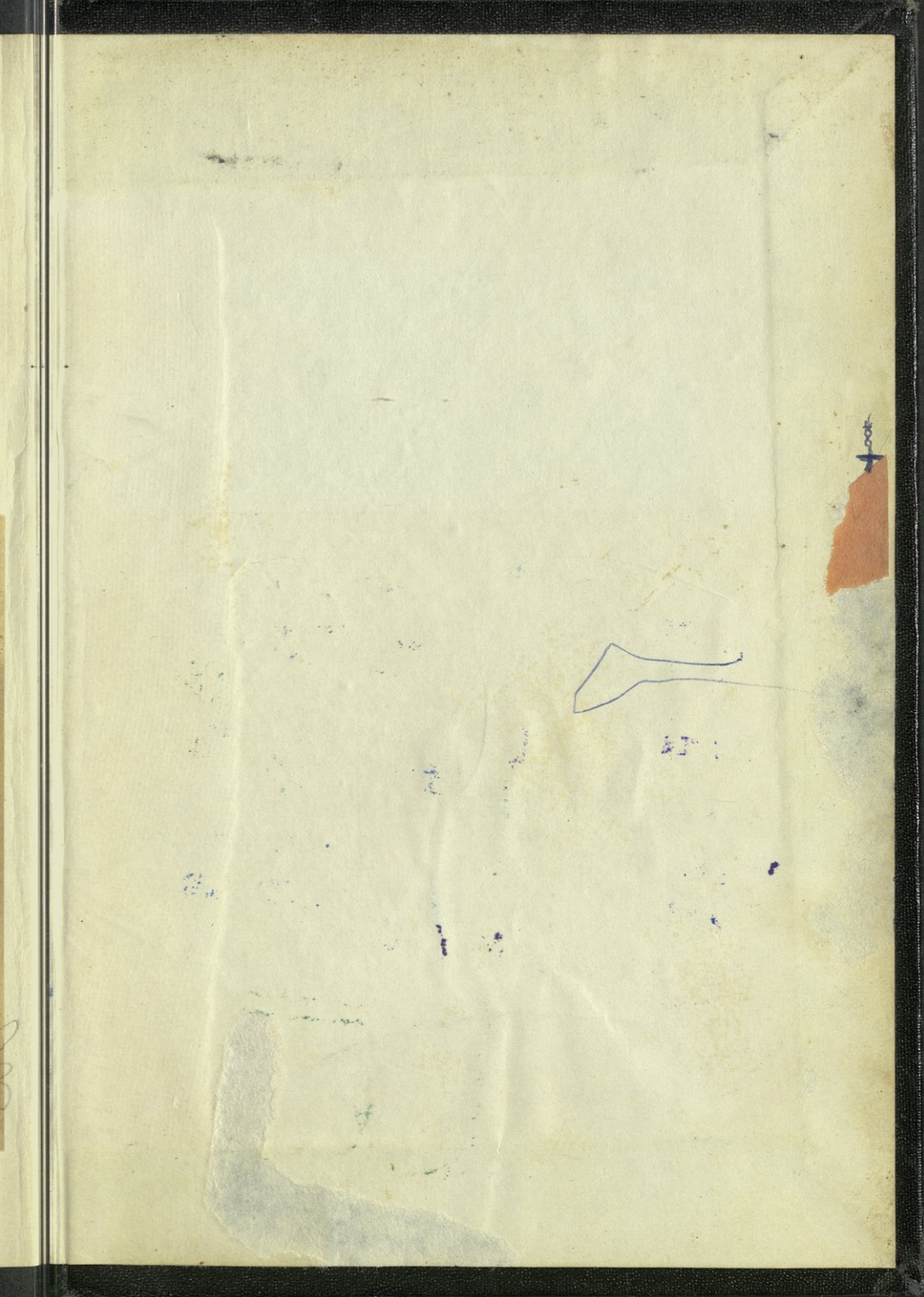


الحول

الاسلام لاشيوعية ولا رأسمالية



330.192:K45iA

الخولي، البهي.

الاسلام لا شيوعية ولا رأسمالية.

A230

A497

330.192
K45iA

JAFET LIB.

~~APR 1 '56~~

~~JUN 15 '61~~

~~MR 27 '58~~

~~26 FEB 1986~~

~~1 Jun 66~~

~~APR 12 '58~~

JAFET LIB.

~~APR 26 '58~~

12 FEB 1993

~~FEB 1 '59~~

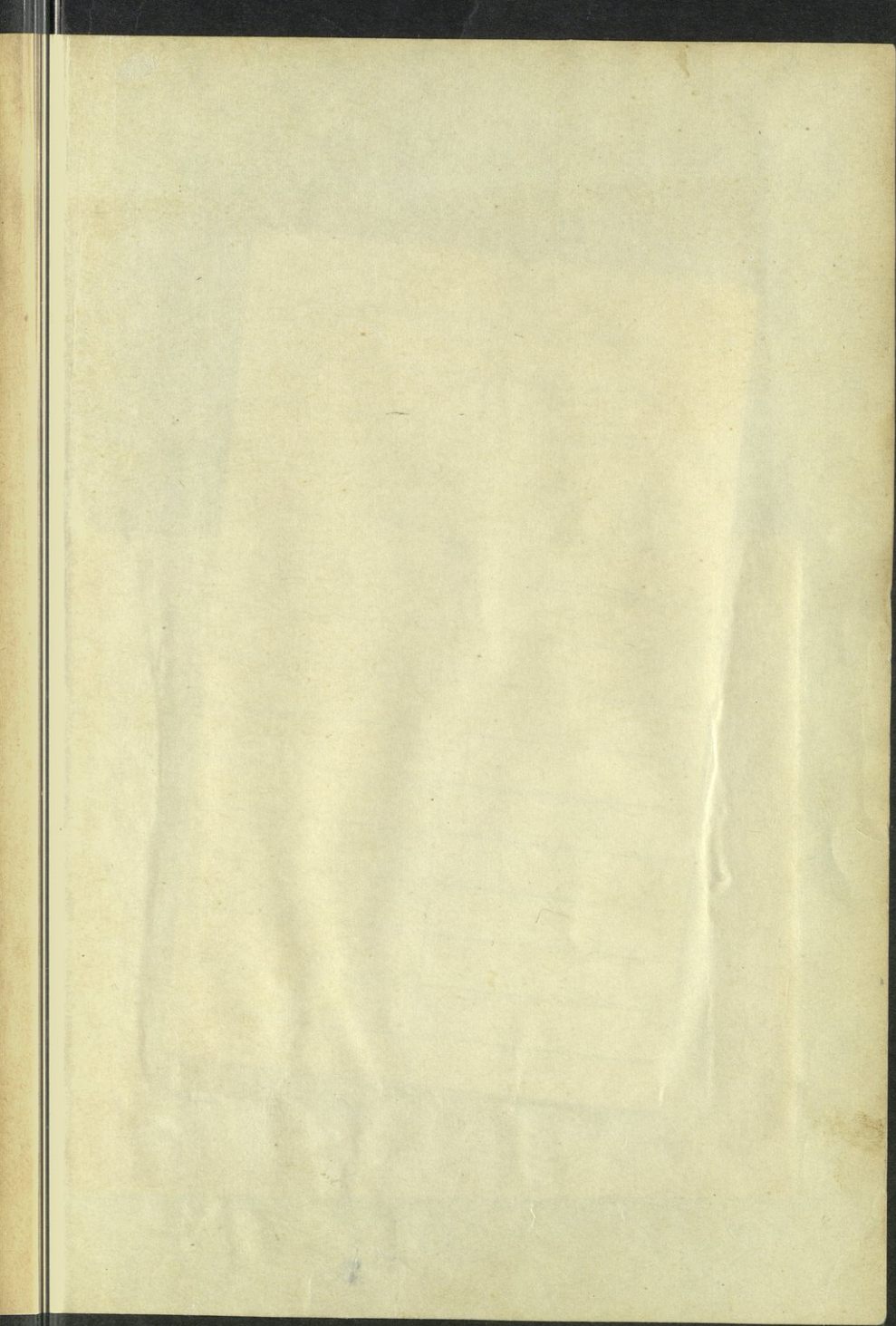
~~6 May 70~~

~~13 JUN 1986~~

~~APR 1 '56~~

~~FEB 1 '59~~

~~FEB 26 '58~~



330.192

K451A

C.1

المكتبة الوطنية
بدمشق



الأستاذ الأحمري

لأشيعوية ولأرأسمالية

العمل والعمال

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٩٥١

إهداء الكتاب

إلى أخى الذى أحبه وأذهب فى حبه إلى أبعد مدى .
واسأنى حين تنسكرك لى الناس . . . وأقبل علىّ فى غير
معرفة ، وهو يعلم أنه الخطر المحقق .

إلى المرومة الجزلة ، والطبع الأبنى المكتمل ، والرجولة
التي لا يلحقها ذرة من هوان .

إلى النفس الزكية ، والنفحة العلوية ، والسماحة التي
تنظف نورا كإنها قناع رحمة الله .

إلى أخى الذى أحبه ، ولا أسميه إجلالا وتكرمة ؟

البرى الخولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه .
وبعد ، فهذه هي ذى الطبعة الثانية للرسالة الأولى من رسائل
« الإسلام : لاشيوعية ولا رأسمالية » .

وقد قرأ حضرات القراء في نهاية الطبعة الأولى وعداً بمواصلة
إصدار بقية حلقات هذا المبحث .

وقد أعان الله سبحانه على جمع مادة الموضوع من الآيات
والأحاديث ، وآراء الصحابة وأحكام الفقهاء ، وشواهد التاريخ
وغيرها من مظانها الكثيرة .. وبعد أن بذلنا في ترتيبه وتبويبه
وكتابته من الوقت والجهد ما بذلنا نقلت من طنطا إلى القاهرة ،
ولم يتح لى الاستقرار بعد ذلك ، إذ صدر قرار حل الإخوان
المسلمين ثم قرار اعتقالهم بمعتقل الهاكسب والطور ؛ ثم إلقاء
فى السجن .. وقد استغرق ذلك كله عامين تقريباً ، كانت البلاد
خلالها فى زعر متصل : يصبح المرء فلا يدرى أين فى أهله
أم تحت سياط الجلادين ، ويمسى فلا يدرى أين فى بيته أم فى
سجن من السجون أو معتقل من المعتقلات ! ؟ .

وكان أحد فضلاء الأصدقاء تفضل فأخذ مسودات الكتاب عنده مخافة أن تبعثرها المحنة ، أو تذهب بها إلى حيث لا تعود . . . فلما أذن الله سبحانه بخروجه من السجن ، وطلب إلى بعض الإخوان أن أفي لهم بما وعدت ، عدت إلى هذا الصديق أسأله . وكانت حيرة ووجوم ، أدركت من خلاهما أن هول المحنة ما كان يسمح بالإبقاء على آثار شخص جيء به من الظروف ليزج به في السجن متهماً بقلب نظام الحكم .

وألقيتني مضطراً إلى أن أعود إلى بدء ما كنت قد انتهيت منه . ووفق الله سبحانه فأنتهيت من إعداد الرسالة الأولى ، بعد أن أضفت إليها ما يزيد على نصف ما كانت عليه ، وأسأله سبحانه أن يمن بالعون والتوفيق فيما بقي .

وسننشر ما يمن به الله سبحانه في رسائل قصيرة ، متتابعة تتولى كل منها علاج موضوع مستقل بذاته ، ملتزمين في نهجنا عرض وجهة النظر الإسلامية للبحث .

وبما يقع فيه بعضهم أنهم يحاولون تطبيق الإسلام ونظرياته على ما عرفوا من مذاهب ونظريات جديدة وافدة من الغرب ، في الحكم ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، ليقولوا إن هذه النظرية في الإسلام هي نفس المبدأ الذي ينادى به أنصار نظرية كذا في مكان كذا . وكثيراً ما يعتسفون في التأويل والتدليل بقصد حسن أو غير حسن ، حتى يبدو لك فعلهم كأنه محاولة

لصب الإسلام في تلك القوالب الغربية . وهذا نهج بجانب الإنصاف
العلوي من ناحيتين :

الأولى : أن الإسلام أقدم ظهوراً وتطبيقاً من كل هذه التي
يتهافت عليها المهافتون اليوم ، فقد عرفته البشرية منذ أكثر من
ألف عام .. ومن حق هذه الحقيقة علينا أن نقبس هذا الجديد
الوافد ، على القديم المقيم بيننا ، فما وافقه منه قلنا إنه من الإسلام ؛
وما خالفه كان له حكم آخر .. أما أن نخطف بكل وافد علينا
في ترحيب وحماسة ، ثم نلتفت لنقول للإسلام إنك تشبه في كيت
وكيت ، وعليك أن تحوركذا وكذا من ملاحك لتكمل المضاهاة
بينك وبينه ، فهو مسخ للإسلام ومخافة للحق وروح الإنصاف
العلوي .

أما الثانية : فإن الإنصاف كان يقتضيهم أن يرسموا صورة
كاملة للإسلام في الموضوع أو الناحية التي يحبون المقابلة بينها
وبين غيرها ، صورة كاملة الأجزاء واضحة التقاسيم ، مدعمة
بالنصوص والأدلة من القرآن والحديث وواقع التاريخ في الحقبة
الإسلامية الزاهرة ، مصورة تصويراً علمياً لا عاطفياً ، يبين موقعها
الأصيل من سائر تعاليم الإسلام ، وارتباطها بغايته العليا ، بحيث
يقرؤها القارئ في ذهنه ضوء واضح يبين حقيقة رأى
الإسلام في الموضوع الذي قرأه ... أما خطف آية ، أو تلقف
فكرة والذهاب في تأويلها ومسح أعضائها كل مذهب ، ليقال أن

الإسلام ضاهى كذا أو كذا من المبادئ الحديثة — فأسلوب لا يخدم به العقل ، ولا يتحقق به الوعي ، ولا يرضى عنه الحق . نعم سنلتزم جهد الطاقة عرض وجهة النظر الإسلامية البحت غير متأثرين بمذاهب الآخرين ، بل غير متأثرين باصطلاحاتهم التي التزموها في هذه المذاهب ؛ حتى يتخذ الرأي الإسلامى مكانه المستقل في الأذهان ، ويبدو في فلسفته الدقيقة ذا كيان متميز بصفته الربانية ، واصطلاحاته الإسلامية الواضحة .

وسيرى القارىء الكريم أنى لن أعرض لشيء من هذه المذاهب المستحدثة بتأييد أو تفنيد ، إلا إذا أحسسته يلامسنى ، أو يعترض طريقى وأنا أتولى عرض ما أنا بسبيله من حقائق الإسلام .

وسيرى كذلك — أو قد يخيل إليه — أننا قد خصصنا الشيوعية بنصيب من حملات النقد أوفر من نصيب غيرها . . .

سيرى ذلك أو يخيل إليه ، لأن النزعة السائدة هي تصويب كل السهام أو أكثرها إلى الرأسمالية الباغية . . . فليعلم أن ذلك لم يخطر لى ببال . . . وليعلم أن كل ما رسمه لنا القرآن من صور الطغيان الرأسمالى الذى بلغ حد الكفر وادعاء الربوبية مائل فى أذهاننا ، وهو كفر لا يقل شناعة فى موازين الإسلام عما تبشر به الشيوعية من إلحاد وإنكار لوجود الله .

فإذا وجد القارىء أن الرأسمالية الباغية تستأثر بأوفر حظ من

الموجدة والغیظ فی قلبه ، فلیس ذلك لأن الشیوعية أهون ضررا منها ، بل لأن رصید السكوارث الذی یهدم كیاننا ویصدع أفئدتنا ویكوی أکبادنا ، هو رصید درج إلینا من أعشاش الرأسمالية الباغية وأوكارها التي باضت فیها وأفرخت ، لا من أعشاش الشیوعية التي تحاول أن تبني أوكارا على أنقاض أوكار ، وأحجارا مكان أحجار .

وحین یشق المسلم طریقہ بین هذین المذهبین لا یتسطیع إلا أن یتسوی بین السکفر القادم وشماعة الشر المقیم ، دون أن یرى للطاغوت المحدث أى فضیلة على الطاغوت القدیم . ١ .

ونحن لانخشى الشیوعية أبدا ولا نقیم لها وزنا باعتبارها نظاما اقتصادیا ، فقد تولت نواміس المجتمع وقوانين الطبيعة مقاومتها فی عقر داره ، وأرغمت قاداته على التعديل منه ، مسایرة لطبائع الأشياء وغرائز البشر ، ولكننا نخشى على عقائد شبابنا أن یتسرب إليها الوهن من خلال البروق الخادعة . . وعقيدة الشباب هی أئمن ما نحرص علیه ، فما المرء إلا عقیدته ، فإذا عاش بغير عقيدة ، فهو رماد منطفئ ، وغبار هامد ، وتفاهة سارحة إلى غیر مصیر .

ذلك هو النظر الصحیح ، أو نظر الإسلام إلى الشیوعية والرأسمالية الباغية ، فإننا نمقت الرأسمالية بدون شك ، ولكن یمجب أن لا یكون بغضنا الصارخ لها صارفا عن بغض الأخرى .

وكفاح الظلم الواقع من الرأسمالية فريضة تستمد قدسيتها من الدين ، ولكن على ألا يلهينا عن مكافحة الإلحاد الزاحف من بعيد .. ذلك هو ما أردت التنبيه إليه ، حتى لا يسبق إلى وهم أحد أنا نخص الشيوعية بأكثر مما نخص عديلتها الكريمة ، أو عدوتها اللدود .

وأسأل الله أن يثير بصائرنا بنور الإسلام ، ويبصرنا بحقيقة تعاليمه ، ويعلق هممنا بأهدافه وغاياته ، وأن يثير الراكد من عزائمنا ، ويثب في قلوبنا الغيرة على مقدساته الغالية ، من الحرية الصادقة ، والتوحيد الخالص ، والتراحم العام الذي ينظم الجميع تحت لواء الأخاء ، والحب ، والتعاون على البر .. والتقوى .. آمين .

القاهرة في { ذى القعدة سنة ١٣٧٠ هـ
أغسطس سنة ١٩٥١ م } البرهي الخولي

مقدمة الطبعة الأولى

ربنا آتينا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من أمرنا رشدا
وصل اللهم على إمام الهدى وقائد الخير ، سيدنا ومولانا
محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداه
إلى يوم الدين :

وبعد : فإن شباب هذا الجيل من العمال والطلبة ، تهفوا آمالهم ،
وتتنبأجي ضمائرهم ، وتجيئ مشاعرهم ، وتتلف أذهانهم إلى عهد
جديد من الأنصاف ، والمساواة ، والعدالة ، والعزة ، والحرية .
عهد يتجدد فيه كل ما عهدنا من أوضاع بالية ، وأفكار عتيقة ،
وأخلاق وضيعة ، واتجاهات قائمة على الأنانية والاستغلال الدنيء .
عهد نهضة قوية حية شاملة ، يتجه فيها المجتمع نحو العمل الجدى
المثمر فى كل ميدان ، ونحو التكافل الذى يرفعى حقوق الفقراء
والضعفاء ، رعاية حازمة صريحة وافية .

أوقل عهد ثورة مباركة ؛ ثورة على الظلم ، والرشوة ، والمحسوبية ،
والجن ، والذل ، والسكسل ؛ ليحل محل هذا كله أضداده من
الفضائل العملية النظيفة .

تتجه آمال هذا الجيل إلى هذه الغاية وقد ترددت فى
أوساطهم وأنديتهم المختلفة كلمات الشيوعية ، والرأسمالية ،

والاشتراكية ، ونحوها مما تسرب إلينا من أوهام الغرب
وضلالاته التي لا تقوم على أساس .

وهذه كلمات موجزة سهلة ، أردنا بها في زحمة المبادئ
والنظريات ، أن نجلو للأبصار والبصائر شيئاً من هدى الإسلام
كنظام اجتماعي أهمله أهله ، ونسوا ما فيه من جمال وقوة وخير .
ونريد هنا أن نوكد للشباب أن كل نهضة تتذكر لماضيها المجيد
وتراثها التليد ، وتهاافت بلا قيد ولا شرط على الجديد الذي عند
غيرها ، هي نهضة ذليلة عمياء .

ذليلة ، لأنها احتقرت نفسها وآمنت بغيرها .
عمياء ، لأنها لم تبصر ولم تميز ما في تراثها من خير وشر .
والذلة والعمى ، لا يصلحان نهضة عزيزة مأمونة السير ،
ولا يفضيان إلا إلى العبث والخلل والفوضى .

وهنا يفرض علينا الواجب أن نعتر بماضيها ، وأن ننظر إلى
تراثنا وتقاليدنا نظرات فاحصة ناقدة مميزة ، فما كان منه صالحاً
أبقينا عليه ، وأخذنا به ، وما كان غير ذلك كان لنا معه شأن
آخر ...

وعلى هذا الأساس المتزن نقبس من حضارة الآخرين كل
ما نراه صالحاً من أنظمة ومبادئ .

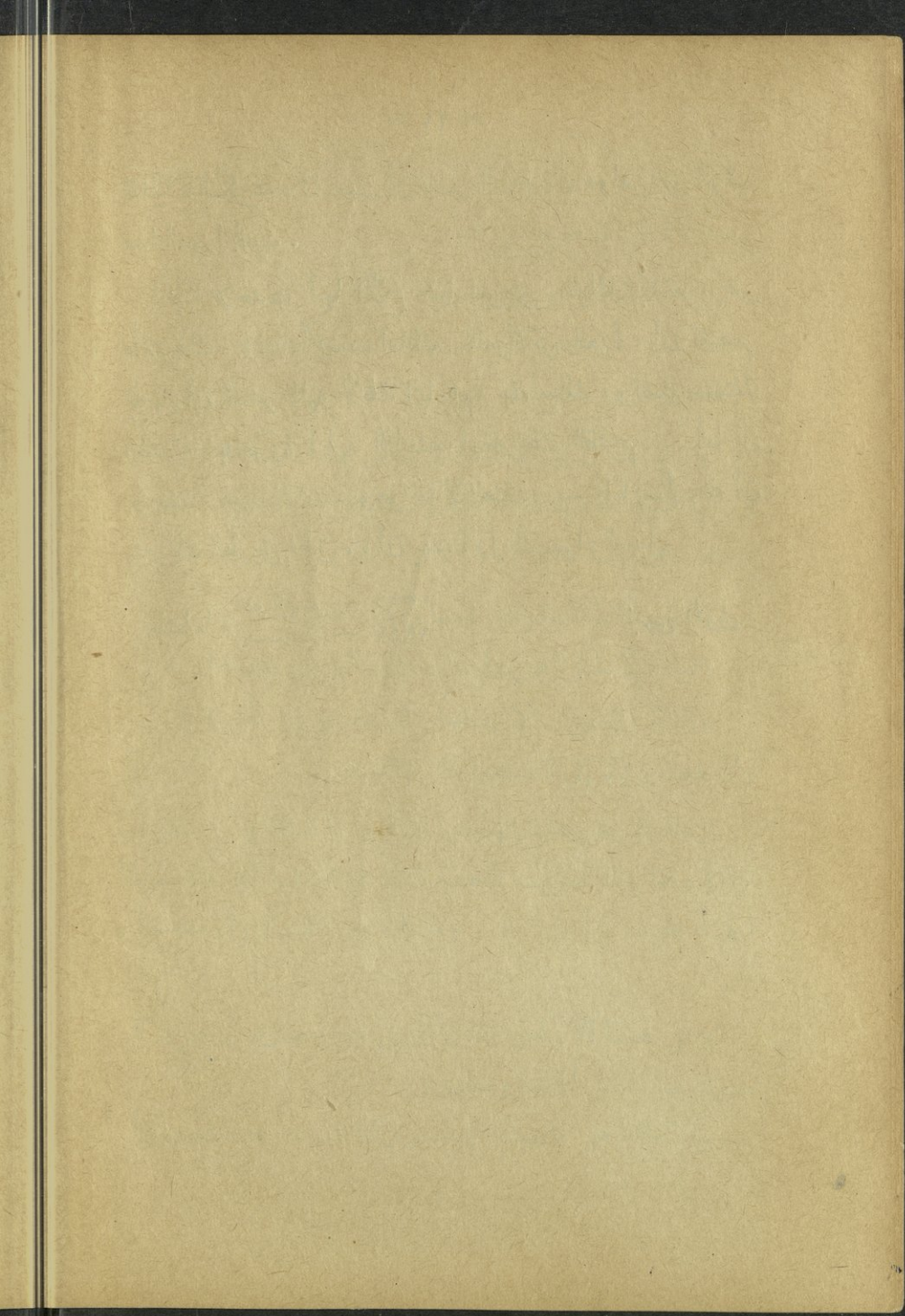
والإسلام هو ماضيها المجيد ، وتراثنا العتيق وعليه قامت كل

تقاليدنا السكرية ، فما حسن أن نغض الطرف عنه ونحن على أبواب
هذا العهد الجديد .

فإذا وجدت أيها الأخ فيما نعرض عليك كلاما يرضى
طموحك ، ونظاماً يسعد آمالك . فالعزة كل العزة ، أن تعتصم
به ، وأن تدعو إليه لأنك إنما تهتز بقوميتك ، وتصل نهضتك
الحديثة . بالعروق الحية النابضة في تاريخك القديم . . . أما إن
وجدت غير ذلك — وهو ما لا نعتقد — فإننا نسأل الله أن
ينير لك الطريق الحق ، وأن يهدينا وإياك سواء السبيل .

البرهي الخولي

طنطا : — ١٣٦٦
سبتمبر — ١٩٤٧



الباب الأول

مع الأزل

« يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً »
« قرآن كريم »

هذه الأرض :

هذه الأرض التي نسكنها :

من مالسها وصاحبها ؟

من مصرف أمرها وقائم على أقدارها ؟

من الذي أبدعها وأنشأها وخلقها من العدم ؟

لا شك أن أحداً منا لا يستطيع أن يدعى أنه هو الذي
فعل ذلك .

ولا شك أن كلامنا يجد في فطرته الجواب حاضرأ فيقول

في غير تردد « إنه هو الله رب العالمين » .

ولا يمكن أن يكون هناك جواب تطمئن إليه النفس
غير هذا .

هذه حقيقة من حقائق الأزل لا سبيل إلى إنكارها .

ولا مشقة في فهمها ، وقد سجلها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى « قل أنتم كنتم تكفرون بالذى خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين » .

فهى إذاً ملك الله سبحانه ، ملك له بحق الخلق والإيجاد ، لا بحق البيع والشراء أو الميراث أو وضع اليد : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

وإليك حقيقة ثانية : هى أننا نحن أبناء هذه الأرض ، منها خلقنا الله ، ومنها نبتت لحومنا ونشأت أبداننا .

وليس فى ذلك شك ، فهو الأمر الواقع ، والمشاهد الذى لا يكابر فيه أحد . . وإلى هذه الحقيقة أو البديهية الأزلية أشار القرآن الكريم بقوله : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » ،

.. « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض » ،

وإليك الثالثة من هذه الحقائق ، أن الله إذ خلقنا منها وأوجدنا عليها لم يتركنا بمضيعة نهلك فى مجاهلها من الجوع ، بل أنزل عليها الماء ، وفجره خلالها ، وسلكه فيها ينابيع ، وأحيا به الأرض الميتة وأنبت فيها ما تقوم به حياتنا .

وهذا قول سهل ، لا يحتاج فى فهمه إلى كد القرائح ، وإجهاد

العقول ، وإليه أشار القرآن الكريم « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ،

مائدة :

ومعنى ما تقدم أننا بإزاء مائدة كبرى مدها الله سبحانه خلقه وجعل لهم فيها كل ما يرون عليها من ألوان الطعام والزينة .
وبدهى أنه لا فضل لأحد منا على آخر في هذه المائدة فهي فضل الله ، ورزقه لعباده : « كلوا واشربوا من رزق الله ، وليس لإنسان كائناً من كان ، أن يدفع آخر عن هذه المائدة ، أو يحرمه حقه الأزلى الإلهي فيها .

فإذا وجدت قوة ما ، أو إنسان ما يعمل لحرمان آخر من هذا الحق ، فليس له جزاء إلا مقاومته بالقوة ، واستئصال شره بكل ما ملكت أيدي الأحرار من وسيلة مشروعة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » .
لقد نصب الله هذه المائدة ، وزينها بكل رزق حلال ، ثم وجه

الدعوة إلى عباده جميعاً ، بدون استثناء أن يقبلوا عليها وأن يأكلوا منها : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » .
فمن الفضول والوقاحة ، ومن الأنانية البغيضة ، أن يبذل جهد ما ، ليحال بين إنسان وحقه في مائدة نودى إليها من السماء ، ومدتها الطبيعة بين يديه مدياً ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

إذاً فليعلم الجميع كباراً وصغاراً ، أن لكل إنسان في هذه المائدة حقه الذي لا ينازعه فيه منازع ، أى حقه في أن يحصل على مطالبه الضرورية للحياة .

ولو أن الناس فهموا هذه البديهية السهلة ، وعملوا بها ، وجعلوها أساساً للعدالة وتوزيع الحقوق ، لما كانوا اليوم فيما يعانون من فوضى وآلام .

كيف نأكل من هذه المائدة ؟

منذ وجد الإنسان وهو يرى نفسه أمام ألوان هذه المائدة وجهاً لوجه ، ويرى نفسه حراً في تناول ما يشاء منها .

ولو قنع الإنسان بتناول هذه الألوان كما هي على طبيعتها ، بدون تحوير فيها أو إدخال تعديل عليها ، لعاش في أغلب الظن ، عيشة سلمية ، أو قريبة من السلم .

ولسكنه لم يقنع بهذه العيشة الساذجة ، وفيه من غرائز الطموح ما فيه ، فأخذ يعالج اللقمة التي تقيم أوده ، والثوب الذي يرد عنه عوادى الجو ، والمتاع الذي ينتفع به ، والأداة التي يستعين بها . وأخذت علاقته بهذه الأشياء الطبيعية ، تنمو شيئاً فشيئاً وأخذت احتياجاته إليها تزيد وتكثر ، حتى وجد نفسه عاجزاً عن الوفاء بها جميعاً ، ومن ثم وجد نفسه شاعراً بضرورة التعاون بينه وبين غيره .

ومن هنا نشأ بين الأفراد ، والجماعات ، والطبقات ، ما نشأ على مر العصور من منافسة . . . واحتكاك . . . وأزمات . . . وثورات . . . وحروب . . . ونشأ تبعاً لذلك ، ما عرفه الناس قديماً وحديثاً من مذاهب سياسية ، وآراء اجتماعية معتدلة أو متطرفة .

سبوعية ورأسمالية :

فتعكر سلم الإنسان كما ترى جاء من أننا لم نعرف كيف نأكل من هذه المائدة ، أو أننا لم نستطع إيجاد أساس للتعاون العملي العادل بين أفراد الناس وجماعاتهم لتحقيق هذه الغاية ، أو على تعبيراتهم الحديثة ، جاء التعكير من سوء علاقة الإنسان بالمواد الخام الطبيعية ، التي خلقها الله له ، ووجدناها أمامه على ظهر الأرض أو في جوفها .

ويرى الشيوعيون أن تناول الإنسان لل مواد الخام ليعالجها
ويصنع منها ما يشاء ، قد استلزم توزيعاً للأعمال ، كما استلزم
بطول المراتب خبرة في العمل لدى بعض الأشخاص ، وتخصصاً
جاء بملسكات فنية ممتازة . . . فأنتج هذا بتعاقب السنين ، أفراداً
ممتازين أنتجوا ما لم ينتج غيرهم ، وصار لهم من الأموال والممتلكات
ماليس لسواهم ، ونشأ لهم من الحقوق والقوة ماسوخ لهم أن
يستأثروا باستغلال كثير من المرافق ، وأن يدفعوا غيرهم عنها ،
ويعدهوهم عن الانتفاع بها . . . أى نشأت الملكية المشؤمة في
جانب والحرمان البغيض في جانب آخر .

وتستمر سلسلة القروض عند الشيوعيين حتى يقولوا :

إن المالكين بما لهم من قوة ، استطاعوا استعمال غيرهم
وتسخيرهم في مصالحهم لقاء أجر زهيد لا يكاد يفي بحاجاتهم
الأولية .

هذه قصة الشقاء كما يتصورها الشيوعيون ، وهى القصة التى
يننون عليها مذهبهم في محاربة الملكية ودستورهم الذى يقرر :
أن يعمل العامل وينتج بقدر ما يستطيع ، ثم يأخذ من
هذا الإنتاج فى النهاية بقدر ما يحتاج إليه ، حتى لا يتجمع فى يده
على التوالى ، ما يعيد أسطورة الملكية المشؤمة فى جانب . . .
والحرمان البغيض فى جانب آخر .

فساد :

ولكى نرى فساد هذا رأى ، يجب أن نكون مع الفطرة
ونور الأزل .

للتشيوعين الحق في استنكار استغلال الضعفاء ، ولكن هذا
الاستنكار ليس وقفاً عليهم ، بل هو صوت ينبعث من كل نفس
حرة وضمير أبى كريم .

ومقاومة هذا الاستغلال الدنيء واجبة ، ولكنها لا تكون
بالغاء الملكية ؛ بل بتجريد هؤلاء الأقوياء من كل جاه ، أو نفوذ
أو سلطان ، يطوع لهم البغى الذى يبغون . . . أى بإقامة السسلطة
العادلة ، التى تكف عدوان الأغنياء والأقوياء على حقوق
الضعفاء ؛ وتقيم موازين العدل الدقيق بين كافة الطبقات .

أما الملكية بذاتها فليس من طبيعتها أن تنتج مثل هذا العدوان
فقد يملك الإنسان ولا يظلم . . . وقد يملك ويكون محسناً كريماً ،
وسمحاً رحيماً ، يفشى الخير ، والمواساة ، والسلم بين الناس . . .

فالمسكية إذن — ليست فى حاجة إلى علاج أو مقاومة ، إنما
يحتاج إلى العلاج والتهديب ، غرائز الناس وما فى نفوسهم من
نوازع الطمع ، والأنانية وحب الذات .

ومن الفساد الظاهر في فلسفة الشيوعيين ، أنهم يتركون الرجل يعمل وينتج ، ثم لا يمكنونه آخر النهار من أن يستولى على ثمرة عمله ، بل يعطونه بقدر ما يحتاج إليه .

وقد يكون هذا الذي يحتاج إليه ، أقل من الإنتاج الذي أنتجه ولا يوازيه . . . وقد يكون أكثر .. ولا شك أنك تلمح ما في الحالتين من شذوذ وخروج عن الوضع الطبيعي المعقول . فنفوس الإنسان أَرْضَى ما تكون وأطيب ، حين ترى أنها جنت ثمار جدها في الحلال ، واستحوذت عليه قليلا كان أو كثيرا .

فأنت ترى أن البشرية في حاجة إلى من يغنيها عن جهالة الشيوعيين ، كما هي في حاجة إلى من يريحها من طغيان الرأسمالين ؛ فكلاهما نظام غير طبيعي . . . وإنما يتطرق الفساد إلى المجتمع حين تسير أموره على غير قانون الطبيعة وسنة الفطرة .

وموب مسابقة الفطرة :

والفطرة في الإنسان ، هي مجموعة القوى الطبيعية ، والدوافع الأصلية ، التي جهزه الله بها ، ليسكون عنصرا عاملا مشمرا ، صالحا لغارة الأرض على الوجه الذي يريد سبحانه .

وهذه القوى الفطرية ، هي التي يسمونها الغرائز :

وهي ذات أثر طيب مبارك ، إذا أحسن تهذيبها ، وتوجيهها ،

ولكنها قابلة للطغيان ومجازة حدود المنفعة ، إذا تركت بغير ضابط من عقل أو قانون ، أو إذا ألحجنا عليها بما يضعفها ويكبتها ؛ فذلك تغيير لخلق الله ، ومسوخ لفطرة الإنسان ، يصبح به المرء هيكلا هامدا فارغا من كل قوة تبعث على جلائل الأعمال ... ولسنا بصدد بيان هذه الغرائز وتحليلها ، وكيفية الانتفاع بها فذلك مرجعه إلى علم النفس ، ويكفي هنا أن نذكر منها :

(١) غريزة المحافظة على النفس ، أو حب البقاء .

(٢) السيطرة .

(٣) الملك والافتناء .

(٤) الجنس .

(٥) الدين .

فإذا أردنا الخير لأنفسنا فلنجعل تشريعاتنا تشريعات لهذه الغرائز ، وتنظيماتنا الاجتماعية تنظيمات لهذه القوى ، أى تراعى فى هذه التشريعات دوافع الغرائز ، واتجاهات الميول الفطرية ... بحيث لا نضع قانونا أو نظاما إلا بعد أن نعرف الغرض منه ، وأى غريزة يتناول ، على أن يكون دستورنا فى التشريع دائما هو الوقوف بهذه الغرائز عند الحد الوسط ، فلا نتملقها بالتدليل والطغيان ، ولا نرهقها بالسكبت والحрман .

وبما هو جدير بالذكر أن هذا المنهج الحكيم هو منهج القرآن

ومنه تعلمناه وعنه نقلناه . . . وإنك حين تتبع تشريعات الإسلام الحنيف ، ترى أنها كلها جاءت لتنظيم فطرة الإنسان ، أى تنظيم غرائزه تنظيما عادلا حكيما ، يكفل خير الدنيا والآخرة . . . وهذا سر خلود قوانين القرآن وصلاحياتها للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان .

أما أولئك الذين يضعون القوانين كيفما اتفق ، فهم سطحيون ، محجوبون عن السر ؛ وكذلك الذين يحدثون انقلاباتهم وتنظيماتهم لمجرد التخلص من وضع قائم ، فهم لا عيون بالنار ، ما داموا لا يراعون حساب هذه الغرائز فى عمارة الأرض وسلم الإنسان . وهؤلاء الشيوعيون ، جاءونا بنظام عجيب متخاذل ، ينادى فى جراءة عجيبة « أن يعمل كل بقدر ما يستطيع ، ثم يأخذ كل يقدر ما يحتاج » ، ويرتبون على هذا تحريم الملكية ! فأى شيء فى هذا يساير غريزة من الغرائز .

يعمل العامل ويجد نهاره ، ثم تحجز عنه ثمرة عمله ، فأين غريزة التملك .

والعامل مفطور على المصاراة والمنافسة ، والتفوق على الأقران . . . فهل نرى فى هذا النظام ما يغذى هذه الميول ؟ إن المنافسة يحركها ويدكيها ما يكون وراءها من مقابل . . . ولكم نرى فى هذا النظام أنه . . . لا ثمر ، ولا مقابل ، ولكن . . .

« جناية مقررة » أو « تعيين معلوم » يناله المرء بقدر ما يكفيه .

إن المنافسة تثير الهمم ، وتشحذ العقول وترقى بمستوى العلوم والفنون ، وتجعل المرء يدفع الحياة بيديه إلى الإمام ، وينفخ فيها من روحه ويمنحها قوة من قوته .

أكل ذلك يتأتى بغير إثارة القوى الغريزية ؟

إنهم — إذا — يفترضون الإنسان آلة صماء ، خالية من العواطف والمشاعر والميول ، وهو افتراض لن تستقيم به حال ، أو يستقر عليه نظام ، ما دام الإنسان إنسانا ، ولا تبديل لخلق الله .

ولا تقل لماذا انتصر هؤلاء على هتلر . . . فقد انتصروا من قبل على نابليون . . . وعامل النصر أيام الشيوعية هو عامل النصر سابقا أيام القيصرية .

ولقد طالما سمعنا هتلر يردد شكواه : إنا لا نحارب الروس ولسكنا نحارب الطبيعة ، نحارب الثلج المميت ، والبرد الذى يجمد البنزين فى خزان الدبابة . . . وزد على ذلك ما أنك الألمان فى حروب شمال أفريقيا ، وغرب أوروبا . وتجمع قوى الأمريكان مع غيرها فى هذه الميادين . . . وزد عليه ما تدفق على الروس من عتاد الحلفاء الحربى تدفقا لم ينقطع له مدد . . هذا إلى السكثرة الهائلة فى السكان هناك .

ومع كل هذا فيجب ألا يفوتك أن هذا النظام لا يزال في دور الحداثة عند أصحابه ، فلم يفعل فعله فيهم بعد . . وقد بدأ الآن يفعل ويؤتي بواكيره ، وبدأ الناس يتهامون بما في داخل بلاد الروس من ضغط على أصحاب المشاعر والآراء الحرة ، وما يتعرضون له من سجن ونفي وتشريد . . بل إن القائمين بالأمر أنفسهم ، ما لبثوا أن تبينوا فساد ما هم عليه ، فبدءوا يتراجعون ، ووجدوا أنفسهم مكرهين على إباحة الملكية الفردية في صور محدودة . . ويشيرون بالمنافسات والهجم بضروب المغريات التي كانت محرمة ، إذ أباح دستورهم الجديد تفاوت الأجور بتفاوت جودة العمل ومقداره .

وسوف تقهرهم الظروف . . « والتفاعلات الاجتماعية ، على المزيد من التقهقر ، حتى تباح الملكية في صورها الطبيعية العادلة ، أي حتى يضع كل عامل يده على ثمرة عمله الحلال بلا قيد ولا شرط .

ونحب أن لا يقع في فهم قارئ أننا نخص الشيوعية وحدها بهذه الحملات ، فليست والله بأسمج في نظرنا من الرأسمالية الباغية ، التي لا تفرق عن اللصوصية إلا في بعض الصور والألوان .

وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى :

فإذا أفلحنا في سن التشريعات وإقامة النظم التي توجه قوى
المرء إلى المصلحة في تناسق ، وحكمة ، ألقينا علاقتنا بمتاع
الأرض ، أو بالمواد الخام كما يقولون ، علاقة سهلة لا تعقيد فيها .

فميدان العمل مباح للجميع ؛ ينزل إليه كل ليطلب نصيبه ،
بكل ما سلحته به الطبيعة من قوة وفن ؛ على أن يكون الميدان
خالياً من كل المؤثرات الفاسدة ، ومن كل ما يغير عليه نظام
طبيعته وعدالته ، بل على أن يرصد لحماية هذا الميدان من القوى
الحازمة ، ما فيه غناء لحسم الشر وإقرار السلم . . فينال كل عامل
أجر ما عمل ، أو ثمر ما عمل .

يناله كاملاً ، غير منقوص منه ، ولا مزيداً عليه ، جاريّاً على
سنة الجزاء العادل التي سنّها الله تبارك وتعالى بقوله :

« وإن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهي سنة تحمل كل ما عرفت موازين الجزاء من عدالة في
الدنيا والآخرة :

١ — فلا جزاء لقاعد بلا سعى إلا الحرمان والهوان .

٢ — ومن أخذ بدون سعى ، فهو غضب وفساد ، وهو مجافاة
لسنة الحياة .

٣ — ومن سعى ولم يأخذ ، فهو ظلم وحرمان ، وهو إفساد لعوامل التقدم والعمران .

٤ — ومن سعى وأخذ أقل مما له ، أو أكثر ، فهو نذير الجور الذى يثير الحلل ، ويعبث بكفتى الميزان .

فلا بد من السعى ... ولا بد من الجزاء عليه ... ولا بد من مماثلة الجزاء للعمل ومكافأته له ... ولن يضير المجتمع بعد ذلك أن تكثر الثروات فى أيدي العاملين ، وأن تتسع الممتلكات فى أيدي المالكين ، وأن ينبغى النابغون فى كل فن ، وأن يمهر الماهرون فى كل صناعة ، مادام الجميع يبيتون فى ظل هذه العدالة الإلهية السابعة ..

وجوب النافل الاجتماعى .

قال له صاحبه وهو يحاوره : إن كلامك هذا حسن من الوجهة النظرية ، وتستطيع به أن تجادل فتحرز شيئاً من النصر فى الجدل ، ولكنك إذا طبق عملياً ظهرت له عيوب ، بل ظهر له ما يشبه السكوارث الآلية ، والضحايا التعسة . فقد ذكرت لنا أننا مدعوون إلى مائدة الله ، وأننا شركاء فى هذه المائدة ، وأن تصيب كل منا فيها ، مقدر بما يبذل من عمل ، نخبرنى عن :

(١) ذلك المريض الذى لا يستطيع أن يعمل ، ماذا يكون شأنه ؟. أبيضع حقه لأنه مريض ؟. أو بعبارة أصح ، أيموت من

الجوع لا شيء إلا لمرض أقعده عن العمل ؟ .. إن أهل المائدة لا يبقون مما عليها شيئاً ، ولا يعبأون بحق غائب ولا مريض . . فكل عامل يحظى ثمر ما عمل ، دون التفات إلى غيره ، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لا ينبغي لهما ثالثا ، نفبرنا ماذا يكون شأن هذا الذى غيبه المرض عن حقه بين أولئك الذين أطلقت لهمهم العنان فى الفرص المتكافئة الحلال ؟

(ب) وذلك الشيخ الفانى ، الذى صيرته الشيخوخة إلى مثل حال المريض ، ماذا يكون أمره ، إنه غير قادر على العمل الذى هو قانون هذه المائدة ، وهو المسوغ الشرعى للأكل منها ، أيصيح حقه لأنه غير قادر على العمل ؟

(ح) وذلك اليتيم الضائع . وذلك الذى نزلت به الجوائح فجأة ، فذهبت الآفات بزرقه ، أو الأوبئة بماشيته ، أو الظروف بماله وتجارتها ، فوجد نفسه على التراب ، ماذا يكون من شأنه ؟ إنها حالات تنزل صاحبها حتما فى منزلة المريض ، غير القادر على شيء ، فما حكم هؤلاء ؟
فقال صاحبه :

الامر بسيط غاية البساطة ، إن هؤلاء شركاء أزيون فى هذه المائدة ، أو فى خيرات هذه الأرض ، فلهم فيها حقوق ثابتة ، ولقد ذكرت سابقاً أن لكل إنسان حقه الذى لا ينازعه فيه منازع : حقه فى أن يأكل ويشرب ، حتى لا يهلك من الجوع

وذكرت أن هذا كلام سهل واضح تقبله الفطر جميعاً حين تنظر إليه على نور الأزل وضوء الطبيعة . . . وهذه الحقوق الأزلية الثابتة لا بد أن تؤدي إلى أربابها ، وإلا فسيصف الله كيف أن ينزل الجميع على حكمه .

وقد يكون هذا الكلام عاطفياً أو نظرياً في رأى من لا يفهمون ، وقد يطلب إليك هؤلاء أن تقنعهم بالأسلوب الراقى والمنطق العملى ، أن ثروة الأغنياء ليست ملكاً خالصاً لهم ، بل فيها حقوق أزلية لغيرهم . ومن حقهم أن يطلبوا هذا ، أو من واجبنا أن نقنعهم بالمنطق الذى يريدون .

ومما نتفق فيه مع هؤلاء أن الثروة بنت العمل ، وأن الإنسان إنما يستحق كسبه بعمله . أى أن العمل قانون من قوانين استحلال الثروة ؟ وسبب من أسباب امتلاكها .

ولا سبيل إلى المماراة فى ذلك

ومما نتفق فيه مع هؤلاء أيضاً ، أنه إذا اشترك عاملان فى عمل ما ، فليكل منهما حصة تكافئ ما بذل من جهد ، فإذا تساوى الجهد فالكسب بينهما مناصفة ، وإذا اختلف الجهد اختلفت الأنصبة تبعاً لذلك .

ولا سراء في هذا أيضاً

ونحب أن نسأل بعد هذا ، ما نسبة عمل الإنسان في هذه الثروة إلى عمل الله سبحانه وتعالى ؟ لا نظن أننا نستغل الوجدان الديني في هذه المسألة الاقتصادية ... لا . . . إننا نتكلم عن واقع الحياة الاقتصادية وتقرير حقائقها .

فالاقتصاديون يقررون أن الناس لا يخلقون الثروات وإنما يخلقها الله سبحانه وتعالى ، وما عمل الإنسان فيها إلا عمل ظاهري وشكلي فقط ، يتناول معالجة الأشياء وتكييفها ، حتى تصير صالحة لتنفع الناس ... فأين عمل الإنسان بها ، من عمل الله سبحانه وتعالى ؟ إن عمل الإنسان إذا قورن بعمل الله من حيث الانتاج الحقيقي ، لسكانت النسبة : لا شيء إلى كل شيء . . . إذ تكشف لك المقارنة ، أن الله تعالى هو الذي يعمل وينتج ... ونحن مستهلكون فقط ، نستهلك ما ينتجه لنا كما نريد .

فمثلا النجار الذي صنع الكرسي ، ليس هو الذي خلق الخشب ، ولن يستطيع أن يخلقه ، وإنما كل شأنه أنه جمع قطعاً من الخشب ، وأخذ يدخل عليها تعديلات ، وتحويرات ويضم بعضها إلى بعض ، حتى صارت ملائمة للغرض الذي يريده ... فأين هذا من خلق الخشب نفسه ، وإيجاده من العدم ؟

أن القصة تتلخص في أنه سبحانه يخلق . . . ونحن ننتفع . . .

وهذا هو معنى الإنتاج والاستهلاك الذى يدور عليه علم الاقتصاد كله . . . وكل ما هنالك أن الإنسان أدخل على حياته شيئاً من التعقيد ، فجعلها كثيرة المطالب ، وصار لا يرضى أن يستهلك الأشياء كما خلقها الله ، فغير فيها وبدل ، على حسب ما يلائم ذوقه ورغبته .

لقد وجد الإنسان أن طعم البر تقالة المقشرة ألد وأجود من طعمها وهى بقشرها الذى خلقه الله لها ، فهل يعد إزالة القشرة شيئاً يذكر ، بجانب إنتاج البر تقالة نفسها ؟ !
وقد وجد نفسه يميل إلى تناول الأطعمة بعد علاجها ، بالتشقيق أو التقطيع ، أو التقشير ، أو نحوه ، فما قيمة هذه المعالجة فى عرف الإنتاج ؟ !

إن هذا كله ماهو فى الحقيقة إلا تهمة للاستهلاك فقط ، وقد يقوم المرء بنفسه بهذه التهمة ، وقد يكلف بها خادمه أو طباخه ، وعمل الطباخ أو الخادم حينئذ ، لا يخرج عن عمل النجار فى تهمة الخشب للاستعمال . . . ولا فرق بين عمل الرجلين إلا فى الصورة والمجهود ونوع المادة أو الخام ، الذى يعد للاستهلاك . . .

فنحن فى الحقيقة لا نعمل فى الإنتاج شيئاً يذكر . . . وإنما نعمل فى الاستهلاك فقط ، فهو سبحانه يخلق ، ونحن ننفع . . . ويعمل ، ونحن نأكل ونستهلك .

وما نظن عاقلا يحار في فهم هذا الوضع ، أو يجادل فيه . فهو الحقيقة الظاهرة ، التي لا يستطيع العقل أن يتهرب منها ويتمرد عليها ؛ وهو الأمر الواقع الذي لا مفر من الاعتراف به ، وإلا فبأى شيء نعترف ، إن كنا لانعترف بهذه البدئية الفطرية ، التي تشهد بها الحواس ، وتقر بها البصائر والأبصار ؟ .

ولعل مما تطيب له نفسك ، أن تقرأ هذه الحقائق في القرآن الكريم سافرة ناصعة مشرقة في مثل قوله تعالى « وآية لهم الأرض الميئة : أحييناها ، وأخرجنا منها حيا . فثم « يأكلون » ... وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وجفرا فيها من العيون « لياكلوا من ثمره ؛ وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ! ؟ » . فأنت ترى في الآية الكريمة ، أن الخلق والإيجاد ، أو العمل والانتاج في جانب . . والأكل والاستهلاك في جانب آخر . فالله سبحانه وتعالى ينسب لنفسه - صادقا - أنه هو الذي أحيا الأرض . وينسب لنفسه - صادقا - أنه هو الذي أخرج منها الحب . أما نحن ففهمتنا أن نأكل ونستهلك « فثم يأكلون » .

ثم ينسب لنفسه - صادقا - أنه هو الذي جعل في الأرض جنات من نخيل وأعناب ، وأنه هو الذي جفرا فيها من العيون . . لماذا صنع كل هذا ! لياكلوا من ثمره . . وبعد أن أسند

العمل كله لنفسه ، نفي أن يكون هناك عمل لغيره ، فقال
بصريح العبارة « لياً كلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، وإنما
عملته يد الله سبحانه . . . ولهذا ختم الآية بهذا الختام الذى ما كان
يصح لها غيره فقال : « أفلا يشكرون » ؟

ولعل ما يذهب عنك كل حرج ، أو كل قلق ، أن تعلم أن
الله سبحانه قد تحدث عن عمل يده فى هذه السورة نفسها بعد هذه
الآية بقليل فقال « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً
فهم لها مالكون » ؟

ولعلك تسأل بعد هذا : أما عمل الإنسان شيئاً فى حقول
الحبوب وحدائق النخيل والأعناب ؟

نعم عمل ولكن ماذا عسى أن يكون هذا العمل ؟
إنه اجتهد فى سقى الزرع ، أى فى تحويل الماء من مجراه إلى
الحقول والحدائق .. تحويل الماء الذى خلقه الله ، وأنزله من
السماء ، وأجراه قبل ذلك سحاباً تحمله الرياح ، وقبل أن تحمله
الريح استنقذه بخاراً من العذب الفرات أو الملح الأجاج
فأين تحويل الماء من مكان إلى مكان بجانب هذه الآيات المعجزة ؟
فإذا كان هناك من عمل للإنسان غير هذا ، فهو العزق الذى
يستأصل النبات الطفيل ، حتى لا يشارك الزرع فى طعامه . . .
أو يشذب الأشجار ، حتى تعلو وتصح ، وتكون أطيب ثمرها
وأكثر غفلة . . . فأين هذا من السهر على البذور فى جوف

الأرض والناس نيام ، والقيام عليها في وضع النهار ، يصرف لها سبحانه غذاءها ، ورقيق حياتها ، من كيمياء الأرض ، وعناصر الماء والهواء والضوء ، ما تنهر العقول لحكمته ودقته وعظمته ... ولا يشعر أحد بهذا ، ولا يدلّه في شيء منه ، فسبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون .

وفي المجال ما يغرى بالاستطراد إلى حقائق نفسية تتصل بهذا الموضوع ، ولكننا نكتفي بما يمس غرضنا الذي نحن بإزائه ، فليس لأحد مهما كان نشاطه أو كفاءته أو مقدرته ، أن يدعى أنه منتج ، فقد تبين أن أعمالنا كلها تدور حول الاستهلاك ، أو « تهيمته » الأشياء للاستهلاك والاستعمال ، وهي جهود لا يمكن أن تخرج الأشياء من ملكية منتجها أو خالفها سبحانه .

فإذا جاء الشرع يقرر : أن المال مال الله ، فهي قضية قائمة على أسس اقتصادية واقعية سليمة . . وإذا جاء المستهلكون يضعون أيديهم باسم العمل على هذه الثروات ، فإنهم يضعون أيديهم على مال الله . . وإذا كان حق العمل يمنحهم هذه الملكية فهي ملكية عارضة طارئة ، لا تنسخ أبداً ملكية الله .. وهي ملكية أشبه ماتكون بملكية الرجل المنتفع بأرض الحكر ، يضع يده عليها ، أو يبني فوقها ما يشاء من مسكن ، أو مصنع ، أو متجر أو ينتفع بها على أي وجه يريد ، دون أن ينسخ ذلك ملكية المالك الأصلي أو ينقص من حقوقه .

والله حين خلق ما خلق ، وعمل ما عمل ، وأنتج ما أنتج ، إنما أخرجه لعباده كافة ، ولم يخرج له لفريق دون فريق ، فهم فيه سواء كل على حسب جهده . . فإذا استولى الصحيح القوى على نصيب ما في غيبة المريض أو الضعيف ، فإنما قد استولى على مال الله ، واستولى على أرض من الحكر ، يفتنفع بها ولا يجحد حق الله فيها ، فيؤدى عنها . ما يؤديه المحتكر للمالك الأرض الأصلي ، والله ورسوله المثل الأعلى .

هذه هي القضية ، وهذا هو الوضع السليم .
وبدهى أن حقوق الله لن ينال منها شيئاً ، وأن أصحابها وأولى الناس بها ، هم أولئك الذين حبسهم العذر عن السعى إليها والجد في تحصيلها .

وعلى السلطان — وهو ظل الله في الأرض — أن يتولى هو تنظيم هذه الكفالة ، وتحصيل تلك الحقوق ، على ما يفي بحاجة المجتمع ؛ فلا يضيع يتيم ليطمه ، ولا شحيح لضعفه ، ولا عاطل لاستغلاق أبواب العمل في وجهه ، ولا من في حكم هؤلاء ممن تتركهم الحاجة نهياً للهموم والحرمان ، والنزلة والخوان .
وسياتى تفصيل ذلك في فصول قادمة إن شاء الله في رسالات أخرى . فנסأله العون والتوفيق .

الباب الثاني

العمل والعمال

بسم الله الرحمن الرحيم

(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ،
وآليه النشور) سورة الملك .

مائدة وقانون

أما المائدة فهى مائدة الله التى أخرج لعباده ، وجعلها حافلة
بالمطاعم والمشارب والمنافع . ثم أباحهم إياها بمحض فضله وكرمه
ووجه لهم رقاع الدعوة إليها على يد رسله وأنبيائه : « يأيتها الناس
كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » . وأما القانون ، فهو نظام
هذه المائدة ، وأسلوب الانتفاع بما فيها ، وتناول ما عليها ،
فكيف نأكل من هذه المائدة ؟ .

وليس فى الأمر صعوبة ولا تعقيد ، فالتة سبحانه وتعالى لم
يخلق الأرض على غرار الجنة ، يجلس أصحابها على الأرائك ، ثم
يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأباريق وكأئس من معين ، فيها
مالذ وطاب من لحم وفاكهة وماء من سلسفيل ، لم يجعل أشجارها

كأشجار الجنة ، تتدلى بثمارها إلى أفواه الآكلين ، كلما لقموها منها ثمراً ظهر غيره في الحال مكانه ؛ لم يجعل أشجار الأرض كذلك ، ولم يجعل أنهارها مطاوعة لرغبات الظالمين ، كلما ظمى ظامى امتد إليه خليج من الماء ، وارتفع نحوه عموده الفضى ليبلغ فاه بدون عناء . لم يجعل الله مائدته الأرضية على هذا المثال ، ولو أن ظامئاً جلس إلى شاطئ نهر ، وبسط كفيه إلى الماء يدعوه أو يرجوه أن يبلغ فاه بدون رافعة ، لما أجيب بغير السخرية الصامتة من كل شيء حوله ، ولما كان له مصير إلا الموت ، إلا أن يعمل عملاً يرفع به الماء إلى فمه . وتلك سنة الله في هذه الأرض .

ولا بد من سير إلى النهر ؛ ولا بد من عمل إذا أراد أن يشرب ، ولا بد من سعي إلى الشجر ولا بد من عمل إذا أراد أن يأكل . هذا هو المشاهد المحسوس من شأن هذه المائدة ؛ لاسمبل إلى تجاهله أو المكابرة فيه ، ولهذا سجله الله في كتابه الخالد الكريم تقريراً للواقع ، وحثاً لعباده أن يجاروا سنن الوجود ، فقال عز شأنه : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

وقد قرأنا فى القديم والحديث نصوصاً قوية ، تحث الناس على السعى والعمل . ولكنك لن تجد فى القديم ولا فى الحديث نصاً يقارب نص الله سبحانه :

١ — فهو يبحث على العمل والسعى والنشاط والحركة .

٢ — وهو يلم في الوقت نفسه بسنن الحياة وقوانين الوجود :
« فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، امشوا وكلوا ، فالمشى مقدمة الأكل ، والعمل سبيل الفائدة . . من مشى وسعى أكل . . ومن قعد وأهل فكيف يأكل ؟ ومن أين يأكل ؟

وأنت ترى القرآن في إلمامه بهذه السنن ، سهلاً غاية السهولة ، واضحاً غاية الوضوح ، يعرض عليك الفلسفة ، ولا تشعر إلا بأنك حيال بديهية لا تحتاج إلى حديث ؛ وهذا من إعجاز الله في كتابه سبحانه .

٣ — وهو في النص على وجوب العمل ، أمر ببذل أقصى ما في الطاقة ، ولم يرض لعباده المؤمنين ؛ أن يبذلوا اليسير من الجهد ، أو يقنعوا بالقليل من الرزق . ولعلك تعجب : أين مكان هذه المعاني من الآية السكرية ؟ . فاقراً يا أخي إن شئت وأعد قراتها : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . لم يقل الله سبحانه : « فامشوا وكلوا من رزقه » ؛ لأن المشى هنا يشمل القليل والكثير ؛ ولكنه سبحانه قال : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ومناكب الأرض هي آفاقها الواسعة ، وجناها البعيدة وأقطارها المترامية الأطراف ، والمشى في هذه المناكب الشاسعة

العريضة لا يمكن أن يتم ببذل اليسير من الجهد ، ولا يمكن أن تكون
نتيجته خمول الشأن بين الناس والحرمان من أرزاق الله ! .. لقد
فتحت الآية الكريمة أبواب العمل على مصاريعها كلها وأطلقت
همم العاملين إلى أبعد الآمال ، بألفاظها الهينة اليسيرة مما لا تجد
له مثيلا في سابق أو لاحق .

٤ - وفي الآية حث على الأسفار والاستكشاف من الرحلات
لا بقصد الزهة والترويح ، فإن ذلك يأتي بدون قصد ، ولكن
للاستفادة من كل ما خلق الله من رزق : « فامشوا في مناكبها
وكلوا من رزقه » ونحن في عصر الرحلات والاستكشاف
والتنقيب عما خلق الله من أرزاق في بطون الأرض وصخور
الجبال ، ولم تنقطع عنا أنباء هذه الرحلات وتسابقها العجيب
في اكتشاف معدن (الأورانيوم) أو غير (الأورانيوم) مما له
أثر في حضارة الإنسان ، فهل ترى الآية الكريمة تقصر مثقال
ذرة في إمداد أبنائها بكل ما يواجهون به مستلزمات هذا العصر
من نشاط وحيوية وقوة ؟

٥ - وما يجب الالتفات إليه في الآية الكريمة أنها في معرض
الحث على طلب الرزق تنص على تمهيد الأرض وخلوها من كل
عقبة يتعطل بها الكسالى ، فهي مذلة الصعاب ، موطأة الأكناف
لمن يريد : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها »
- ذلولا فامشوا ... فكأنها تقول : لا عذر للقاعد بعد أن ذللنا

له السبل، ومهدنا له الأكتاف، ووطأنا له فجاج الدنيا وأطرافها !
فحسبنا يا أخى هذه الآية الكريمة من كتاب الله نرد بها على قطع
الممسوخين الذين هبطوا بلادنا كالوباء ، يشتمون نبيينا ؛ ويسبون
ديننا ؛ ويشيعون جرائم القوضى والإباحية والإلحاد فى أوساطنا ،
ويذيعون فى شبائنا البرىء الطاهر أن الإسلام دين كسل وخمول
ورهبة واعتزال لمعترك الحياة .

ولكن للعمل - فى الإسلام - وجه آخر إلى جانب العمل الذى
لم يفهمه الناس سواه ؟ . فآفاق العمل أوسع مما يتصوره الكثيرون
وأهدافه وغاياته أشرف وأعلى من التى يهدف إليها عباد اللقمة
والقميص . وذلك يبدو لك واضحاً ؛ حين تنظر إلى الأمور
ببصيرتك ، وتسائل نفسك فى عمق : ترى لآى شىء خلقنا ؟ .

جعل لكم الأرض :

نعم ترى لآى شىء نحن مخلوقون ؟

هل خلقنا لكى نأكل من هذه الأرض ؟

- وبعبارة أخرى : هل خلقنا لهذه الأرض ، أو أن الأرض
خلقت لنا ؟

والفرق بعيد جداً بين المعنيين :

فالذى خلق للأرض ليس له رسالة إلا أن يخدمها ، وبأكل
منها ، ثم يموت .

أما الذى خلقت له الأرض ، فله رسالة أخرى ، وهى
بلا شك أعلى من رسالة الأول . . وما الأرض فى هذه الحالة
إلا شئ مسخر للخدمة ، يستخره الإنسان على حسب ما يراه
صالحاً للرسالة .

وليس من كرامة أحد أن يزعم أنه خلق للأرض ، وأن لا رسالة
له إلا خدمتها ، والأكل منها ، وما نحسب إنساناً ، يزعم لنفسه
هذا الهوان ، أو يقبل أن يوصم به .

على أن الأمر فى ذلك ليس راجعاً إلى الكرامة الظاهرية
أو العزة الجوفاء . . إنما هو راجع إلى الحق نفسه ، إلى فطرة
الاشياء . . فالإنسان أعز من الأرض وأكرم ، بما فيه من
الأحاسيس ، والمواهب ، والمسلكات العالية ، وهو مخلوق ترابى
وعلوى معاً ، وليست هى من ذلك فى شئ .

وهذا السر العلوى ، هو الذى يشور حين يرمى الإنسان
بأن همه الطعام والشراب والاستغراق فى أنواع الشهوات البدنية
فيقال إنه نازل كرامته . . فهى — إذا — ليست ثورة ظاهرية ،
بل هى احتجاج عميق ينبعث من فطرة الإنسان وأسرار تكوينه .
وأخيراً ، فإن المنطق الذى فطرنا الله عليه ، يأبى أن يصدق
أن الإنسان خلق للأرض ، لأنه يأبى أن يصدق أن النقص

خير من الكمال ، وأن العلوى يجب أن يخدم السفلى ، وأن المخلوق الشاعر المفكر الملهم ، إنما خلق ليعمل هذا الوثن الأرضى الأصم .

فنحن لم نخلق للأرض ، إنما خلقنا لغاية أخرى ، ورسالة أعلى .. أما الأرض فقد خلقت لنا ، وسخرت لخدمتنا ولذا قال تعالى : : هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، .

الإنسان بين العمل والرسالة :

العمل هو قانون الله لعبارة هذه الأرض مادياً وروحياً . فعلى سطحها خيرات معروفة ، وفى جوفها خيرات كذلك غير مجهولة ، وفى صخور الجبال ، وأعماق البحار ، وفى الهواء وجو السماء فى هذا وغيره أرزاق مذخورة للإنسان ، ولكن لا يفيض خاتمها إلا لأهل العمل .

وأنت ترى أن من هذه الخيرات ، ما يمكن السعى إليه ، والحصول عليه ، بأيسر جهد عقلى ، وبوسائل آلية محض ، أى بحواس الإنسان وجوارحه الظاهرة ، كالعين والأذن واليد والرجل ونحوها ، وهذا ما يقع فى مقدور عامة الناس وخاصتهم ، ... وهذا أدنى مراتب العمل . وأصحابه هم العمال .

وترى كذلك أن من خيرات هذا العالم الأرضى ، ما خبأه الله سرّاً فى هوائها ، ومائها ، وضوئها ، وذراتها ، ونحوها ، وهذه

لا ينالها عامة الناس ، ولا يتوصل إليها إلا بجهد الخواص .
وكما خبأ الله هذه الأسرار ، في هذه اللطائف السكونية ، خبأ
مفاتيحها ، وجعلها سرّاً مضمراً في مواهب الإنسان العقلية .
فإذا اتصل ظاهر الإنسان ، بظاهر الوجود ، واتصل سر
مواهبه المضمرة ، بسر كنوزه الباطنة .. استثيرت الخيرات
وتضاعفت الغلات والثروات .

وهذه مرتبة من العمل والجد ، أعقد من سابقتها ، وأجدى
على عمران الأرض في كثير من نواحيها .. وأصحابها كذلك
هم العمال .

ولكن ، ماذا وراء ذلك ؟

ماذا وراء العمل والسعي لإحراز الخيرات الباطنة والظاهرة ،
والقبض على زمام القوى الخافية والسافرة ؟

أ تلك غاية تقف عندها الجهود ، وتدور حولها قوافل الأجيال ؟
هل رسالتنا في الحياة أن نعمل لنأكل ، وأن نعيش لنأكل ، أو أن
علينا أن نعمل لما هو أعز من هذا منزلة ، وأوسع أفقاً وأبعد غاية ؟

بين العمران المادى والروحى :

لن يغنى الإنسانية ، أنها استخرجت كل ما في الأرض من
ثروة نباتية أو معدنية أو غيرها .

ولن يغنيها أنها كشفت عما لا يحلم به الإنسان من قوانين الطبيعة

وأسرارها وقواها ، وسخرته في منافعها .

ولن يغنيها أنها عمرت الأرض بالمدن العامرة ، والقصور
الزاهرة ، والبساتين الناضرة ، ودور الصناعات الضخمة ،
والجامعات ، والمدارس والمتاحف ، والمسارح ، ودور السينما
وأماكن اللهو ، ووسائل الترفيه ، واللذة والمتعة .

لن يغنيها شيء من هذا أو ما يشبهه ، ما لم يقترن العمران
الحسي ، بالعمران المعنوي .

وهأنذا ترى الإنسانية ، قد جمعت من الثروات ما جمعت
وبلغت من معرفة أسرار الطبيعة ما بلغت ، فهل أغناها ذلك
من شيء ؟ وهل سعدت به يوماً من الأيام ؟

إن الإنسانية قد خرجت بالأمس من حرب طاحنة ضروس
سربت أهلها بالحزن ، وجللتهم بالسواد ، وأورثتهم من الرعب
والهلع والحرمان والجوع ما لا عهد لهم به ، وهأنذا تراهم
ولم تحف دماء قتلاهم ، يجمعون الخطب ليشبوا ناراً جديدة ،
لن تكون أقل هولاً أو أخف مصيبة من سابقتها .

ذلك أن العبرة ليست بما يتحلى به ظاهراً الحياة ، ولا بما
تتخذ الأرض من زخرف وزينة ، ولكن العبرة بالعمران
الروحي ، والتهذيب العاطفي قبل أي شيء آخر .

نحو الصممان الرومى :

لقد عملت الإنسانية بما عملت من قواعد العلم المادى ، وطبقت أحكامه ، وجنت ثماره ، ولكن هناك علم آخر ، تعرفه ولا تطبقه ، وتراه وتتجاهله ، وإنه لوجود يبرى بكرامتها ، ويهبط بشأنها إلى الدرك الأسفل ، ولن يرفع من قدرها مثقال ذرة ، أنها عرفت كل مافى الطبيعة المحسة من قوانين ، واخترعت للبصالح المادية فوق ما يحلم به الخالمون ، ما دامت تتنكر لأحكام هذا العلم .

تسلك علماء الأخلاق ، والفلاسفة ، ومن قبلهم تسلك الأنبياء ونزل الوحي ، بعلم هو أشرف بدون شك من كل ما عرفت البشرية للآن من علوم الطبيعة وأشياءها الظاهرة .

جاءوا بأحكام فى الخير . . والشر .

والفضيلة . . والرذيلة .

والصدق . . والكذب .

والحلال . . والحرام .

والحق . . والباطل .

والوفاء . . والغدر .

والأمانة . . والخيانة .

والعدل . . والظلم .

ومنطقوا ذلك ، وقرروا قضاياها ، ومبادئه ، وتحدثوا عن قوة

آثاره في المجتمع سلبيًا وإيجابًا ، وبرهنوا وبرهن الواقع معهم على حسن عاقبة المجتمع حين تسوده أحكام الفضيلة ، وقوانين الخير ، ومنطق الحق . . وبرهنوا وبرهن الواقع معهم على سوء عاقبة المجتمع حين تسوده أحكام الفساد ، وتفشو فيه الرشوة ، وأساليب التلصص ، وقوانين الكذب والغدر . . ولا يستطيع العقل أن يرد قضية من هذه القضايا ، أو يتشكك في صدق حكم من أحكامها ، بل يصدقها كما يصدق أن الواحد نصف الإثنين ، ومع ذلك نراهم يجاوزون أحكام هذه المبادئ ، ويسيرون على غير هداها .

أترى هناك فرقًا بين ذلك المعتقد الذي خالف حكم العقل في أن الواحد نصف الإثنين ، وراح ينصرف في شئونه على خلاف هذا ، وبين ذلك الذي جاوز منطق العقل في أن الحلال يصلح المجتمع ، والحرام يفسده ؟ إن كليهما يتألف نفسه لا محالة ، ويفسد حياته ، ويعيش خارج أحكام العقل كما يعيش كل معتوه ومجنون . فإذا ظلمت البشرية على هجر تلك المبادئ الروحية السامية ، فأى جمال يكون لها ، وأى علم بعد ذلك يرفع قدرها ، وأى قداسة للعقل وأحكامه تستطيع أن تدعيها لنفسها ، ونحن نراها تتحدى العلم بالضلال ، والرشد بالفساد ، والمنطق بالهزم والسخرية وقلة الاكتراث ؟ .

أستطيع بربك أن تذكر لى على أى شىء تصلح هذه الأرض إذا لم يطبق فيها منطق العقل وأحكام قضاياءه ؟ لقد طبقت الإنسانية ما أدركته من قوانين الطبيعة فميجحت فيه ، ولكنها لم تطبق ما أدركته فى الجانب الآخر ، وهو أخطر الجانبين ، فأدركها من التعثر والفساد ، والاضطراب والخراب ، والشقاء والألم ، ما يعلمه الخاص والعام . . . وهل ينتظر من مجاوزة أحكام العقل إلا الاضطراب والفساد ؟ وهل يستطيع الإنسان أن يقول إن هذه الحروب ، وهذه القلاقل التى تبلبل العالم وتحرقه من أن لآخر فى السعير ، سبها قلة ما حصل الناس من العلم الطبيعى ؟ أم أن الكذب والغدر ، والخيانة ، وظلم الشعوب ، واستعباد الضعفاء ، وانسلاخ كبار السياسة عن كل مبادئ الفضيلة هو الذى جرننا إلى هذا المصير ؟؟ .

أين الرحمة ، وأين مظاهرها السمحة النبيلة ؟ . . . أنها إحدى غرائز الإنسان ، أى إحدى قواه الفطرية الأزلية . . . لقد غاض هذا المعين العذب فى زحمة السعار المادى المتهوم ، وأوشك الإنسان أن يتحول به — أو قد تحول — آلة يابسة صماء ، لا تعرف سماحة ، ولا مواساة صادقة ، ولا نهضة إلى إغاثة ملهوف . . . ولا أذكر الإيثار فهو خرافة فى حضارة تتجر بلحوم البشر ، وما هكذا يجوز أن يمسخ الإنسان !

لقد عمرنا جوانب الأرض بمختلف ألوان العمارة المادية ،

فعلينا أن نعمل في جوانب العارة الأخرى . . أنه ميدان فسيح خطير ، معينه المعنويات لا المحسوسات ؛ ودستوره الاستقامة على الفضيلة ، ورعاية أحكام الحق ، ومظهره العمل للخير العام ، أو العمل لصالح الناس ، دون الاكتفاء بالصالح الخاص .

علينا أن نعمل ، لنرى فضائل البذل ، والصدق والوفاء ، لا البخل ، والكذب ، والغدر قائمة سائدة .

علينا أن نعمل لتسكون عواطف الحب والرحمة ، والمواساة لا البغض ، والقسوة ، والشهامة ، آخذة سبيلها في حياة الناس .

علينا أن نعمل ، لنرى العمل للغير ، وصالح الجماعة هو الدستور المقرر ، الذى يعيش فى نطاقه جميع الأفراد ..

والعمل للغير أن أعطى مما أكسب ، وتلك ناحية نظمها الإسلام على نمط مثالى فذ ، سنعرض لبيانها فيما يلى إن شاء الله والعمل للغير ، إغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف ، وتنقيس

أزمة المكروب . . والعمل للغير ، أن تدفع عنهم ما يؤذيهم .

... تدفع عنهم الظلم ، وأسباب الخوف .. وتعمل أن

لا يعود إليهم الظلم وأسباب الخوف .. وتسعى فى إقامة صرح العدالة والنصفة ، الذى تتوزع به الحقوق والواجبات على أعدل سنن المساواة .

فإذا كنت وحدك ولا طاقة لك بهذا كله أو بعضه ، فاعلم أن الجماعة هى نظام الإنسانية ، وهى وسيلتك إلى كل ما تريد من خير

فاعمل أن تكون في جماعة ، وأن تكون لك هذه الجماعة ؛ فالجماعة
الفاضلة ما برحت مناط الرجاء في التعاون على البر والتقوى ، لدى
كل من يندد الخير لهذه الإنسانية .

هذه كلها أعمال يجمعها محيط العمران الروحي ، وهي كما ترى
لازمة لسعادة الناس ، واستقرار حياتهم المادية .. وأصحابها الاشك
من العمال .

نحو القلوب .

ولكن من لنا بهذا كله ؟ وما عدتنا إليه ؟
لم يخلقنا الله معطلين من مواهب العمران الروحي ، كما أنه
لم يخلقنا معطلين من مواهب العمران المادي ...
فللإنسان قلبه الذي يدفع إلى الخير أو الشر .
وله قلبه الذي إذا صلحت نياته صلحت الدنيا كلها ، وإذا
فسدت ، كان الخراب والدمار والشقاء .
فإلى القلب إذا .. فهو وسيلتك العتيدة .

علينا أن نسعى في عماراته بأنواع الفضائل ، وأشرف
العواطف ، والكشف عما فيه من ينابيع الحكمة ، والرحمة ،
والمواساة ، والإيثار ، ونحو ذلك مما تصلح به الحياة النفسية
والاجتماعية .

أما إذا سكتته أبالسة الشر ، وشياطين الأنانية والشهوة
فلن ترى إلا الرجل الذى يعيش لنفسه ، ويبنى لها كل شيء من
دون الناس .. ولن تجد إلا الأمة التى لا ترى أحداً أحق منها
بخيرات الأرض .. ولن يكون خلال ذلك إلا الكذب ، والغش ،
والنفاق ، والرياء ، والزور ، والغدر ، والتنافس البغيض ، والحقد
المتزايد ، والحروب التى لا تنقطع .. ولن يستقيم مع هذا عمران
أبدأ ، ولن يكون فى شيء منه تقدم للإنسانية ، ومن ظن غير
هذا ، فقد دل من نفسه على غفلة كثيفة .

ويجب أن يتقرر فى الأذهان ، أن الإنسان لا يصلح لأن
يكون من عناصر سلم هذه الأرض ، إلا إذا كان له قلب يفيض
من عالم الغيب برحيق هذا السلم ، وكل إغضاء عن هذه الحقيقة ،
أو تهوين لقدرها ، إنما هو مشاركة فى جرائم المجرمين ؛
ومساهمة فيما ينصب على الإنسانية من ويلات نفسية وحسية .

فمن إذا أمام ميدان خطير من ميادين العمل ، بل أمام
لون حاسم من ألوان الجهاد ، يجب أن تنعقد الأواصر على
تحقيقه ، وتتآزر الهمم على الوفاء بفروضة ، وتكليفه ، إذا
أردنا الخير لهذه الإنسانية حقاً .. ولا شك أنك معى على أن
هذه المجاهدة ، من أسمى أنواع العمل ، وأن أهلها من
الخلاصات العاملة الكريمة .

هجرة إلى عالم المغنويات :

لقد قلنا منذ قليل ، إن الانسان لا يصلح أبداً أن يكون
عنصراً من عناصر سلم هذه الأرض ، إلا إذا كان له قلب
يفيض من عالم الغيب برحيق هذا السلم ، أى أنه فى حاجة
إلى قوة إيجابية تملأ قلبه بدوافع الحق والخير . . وهذه
القوة ، أو هذه الدوافع لا تلتبس فى عالم المادة ، بل لها
عالم آخر ، هى روح من أرواحه ، وسر من أسرار . . فعلينا
أن ننقل ، أو نهاجر من آن لآخر ، إلى هذا العالم لتزود
منه بما نريد من حق ، وخير ، وأسرار .

على المرء أن يفرغ من هذه الدنيا لحظات يرتبها لنفسه
كل يوم وليلة - يتجرد فيها تماماً من هموم معاشه ، ومشاكل
وقته ، وخواطر نجاحه أو فشله ، وهواجس ربحه أو خسارته
وما لقي من كيد الكائدين ، ودسائس المنافسين . . عليه أن
يسحب نفسه من كل ذلك ، ويختلسها من هذا المحيط الصاحب
الفاسد ، حتى يجد نفسه قد خرج من الدنيا وغاب عنها ، إلى
عالم هادئ نقي سعيد .

ولا تظن أن هذا الحديث غريب عنك ، فلا بد أنك جربته ،
ولا بد أنه طرأ عليك أكثر من مرة .

فإذا قلنا إن الانسان يغيب عن هذه الدنيا المادية ، فليس
معناه أن السماء والأرض قد غابتا عنه ، وأنه صار لا يرى
الناس والأشياء ؛ بل معناه أن القلب الذي كان يتأثر بالمادة ،
ومشاكلها ، ويبنى علاقته بالناس على مقتضاها ، قد صار
تحت جناح قوة غيبية كريمة ، يتأثر بدوافعها الروحية ، ويمتزج
بتياراتها المباركة .

فهو تارة يتأمل ويتفكر في خلق السموات والأرض ،
وما أودعها الله من جمال ، وصفاء ، وحكمة ، واتقان صنع ،
واحكام وضع .. وأنها آيات تحدثك عن الله القيوم أحاديث
يخشع لها القلب ، وتطهر النفس ، ويلين بها الطبع ، ويستسلم
لعزة الله ورحمته « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ، فقنا
عذاب النار »

وفي جلسة التأمل يمتلي حكمة ، وهداية ، وإيماناً بالله ،
وعلماً بصفات قدرته ، وهيمته ، وتدييره ، ومعرفة بشأنه
سبحانه ، وحسبك ذلك زاداً للقلب ، ونوراً للبصيرة ..

وتارة يتأمل في نفسه : مم خلق ؟ .. ويرجع في تأمله إلى
الفطرة الأولى ، ليرى ما جبل عليه من ضعف ، وعجز ..
وهوان الماء المهين .. ويرى ما تقلب فيه ، وصار إليه بعد أن
أنعم الله عليه بما أنعم به . لقد أستوعبه نجا خفية ، وأفاض
عليه أخرى ظاهرة .. وما كان ليستطيع أن يهب لنفسه مثقال

ذرة منها ، ولو كان كل من في الأرض ظهيراً له ، وأن نعمة واحدة منها — كالقوة مثلاً أو العقل وحسن التدبير ، والقدرة على التصرف في الأشياء — لتثقل وجدانه بأنواع من التأثير ، وعرفان الجميل ، وشكر ذلك الذي أعطى دون أن يسأل ، وأقبل باللطيف والهبة دون أن يدعى . . . أن التفكير في نعمة واحدة ليذهب بالإنسان هذه المذاهب من التأثيرات ، فيكيف بسائر ما وهب من النعم . . . بل كيف بسموه هو في عطائه ، إذ لم يرض لفضله عليك أن يكون محدوداً ، فأفاض عليك ما تعرف ، وما لا تعرف ، وأعطاك ما تسأل ، وما لا تسأل ؛ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ؟ . . وفي موقف هذا التأمل ، أو جلسته ، لا يحس إلا وجدانا عاجزاً مفحماً عن أن يسدى للنعم المتفضل مثقال ذرة من شيء رداً لجميله ، فلا يسعه إلا أن ينخر شاكرراً لاهجاً بثناء لا يفصح عنه اللسان ؛ ويترجمه الحب العميق ، والأخلاص الغامر ، والعبودية الصادقة لهذا الذي لم يشأ أن يستعبد عبده إلا بقيود الإحسان إليه .

وثالثة يتأمل ويقارن بين أحكام العقل في المادة ، وإحكامه في غيرها . . . ويوازن بين ما يذهب منها بالإنسان إلى النبل ؛ والفضل ، والسمو ، والله . . . وما يذهب به كالمسحور ؛ إلى المنافسة ، والبغض ، والحقد والشيطان !!

يتأمل حرص الناس على استغلال العقل وقوانينه في نصب الشباك ، والاحتيال لاقتناص المادة ، فلا يفرطون في حكم عقلي واحد ، إلا سخروه في الحلال أو الحرام إرضاء لأبدانهم . فإذا كانوا مع نفوسهم أغمضوا أن يسعدوها بفضيلة واحدة ، وعطّلوا كل حكم من أحكام الخير ما دام يقف عقبة في سبيل ما يشتهون !!

.. يتأمل أولئك الذين يرخصون الغالى ، ويغلون الرخيص ، ويلغون عقولهم ، ليشترخوا الضلالة بالهدى ، ويستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .. ويعود إلى نفسه ، فيحاسبها ، ماذا وقع هو فيه من ذلك ...

... هل عصف في يومه بموازين العقل ، فاستعمل مافى إحدى الكفتين ، وأراق مافى الأخرى على الأرض ؟ وهل أفسد من نفسه شيئاً ، وأحدث بدينه ثلثة ، وهل عقدت تحت عين الله صفقة خاسرة ، ونبت تجارتها التى لن تبور وعاد بالخيبة البائرة ؟ .. وهل رضى أن يعيش لحظة من يوم ، بغير خلق ، ولا عقل تحت ظل الشيطان زهداً فى الله ؟

وفى فترة التأمل ، ولحظة المحاسبة يستدرج إلى جو جميل وشعور نبيل ، وإحساس صادق بقيم الحياة ، يرضيه ويسعده ، إذا كان أصاب ورج وأرضى الله .. وإلا تركه للأسف والحزن ،

والندم والألم ، وكل تلك مشاعر مطهرة ، يطل من خلالها وجه الله عليه بالتوبة والقبول !!

يجب أن يكون له في يومه وليلته أورا د راتبة من هذا القبيل يغادر بها دنيا الناس ، إلى عالم هذه الحقائق والمشاعر ، فهي زاد للنفس ، ونور للعقل ، وهداية للضمير ، وعزيمة على الرشد ، وعصمة للقلب أن تلعب به الآهواء .. وكلنا يعرف أن من مقاصد الإسلام حين فرض الصلوات الخمس على المسلمين في اليوم والليلة ، أن تكون لهم رحلات منظمة ، إلى عالمهم العلوى ، يتزودون فيها بما يلهم الخير والصلاح ، ويكف عما عدا ذلك .. وإليه الإشارة بقوله تعالى : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر » .. وإنها لرحلة تنادى صاحبها إلى التشمير ، وتقتضيه الجد وصدق العزيمة ، حتى يستطيع القلب أن ينفض عن جناحيه وضر المادة ، ويخلق بهما في ملكوت الحقائق الناقى .. فمن أحسن في رحلته أن نفسه تفيض من الفرح ، وذوقه يغرد بجمال الحق ، وبصيرته تصغر كل ما حوله من قيم المادة ، وقلبه من وراء ذلك يرمى بالشهب غيرة على حماه ، فليعلم أن رحلته مبرورة ، وأنه أشرف منها على العالم المرموق ... وإلا فليعلم أن صاحبه كان يلهو بالأوهام ، أو كانت تلهو به وتعبث ، ولا أرب لنا في ذلك الطراز من التافهين .

فطام الرجال والأطفال :

إننا ندعو إلى الانتقال الجدى الواقعى . لا الخيالى الوهمى .
الانتقال الذى تصحبه مشقة المجاهدة . وشدة المراقبة
والمحاسبة .

الانتقال الذى نخرج به من رخاوة الهوى وعمايته . . . إلى
صلابة الحق وهدايته .

الانتقال الذى نرد به النفس من جموح التدلل فى المطالب . .
إلى معاناة الجد والصبر على الكفاية .

الانتقال الذى تفتطم به نفوس الرجال ، وتراض به على مثل
فطام الأطفال .

إن الدنيا حلوة خضرة — كما يقول رسول الله صلوات الله
عليه — وبين حلاوتها المادية ، وحلاوة النعيم الروحى ، مرحلة
انتقال جافة . . فيها قسوة ومشقة وحرمان ، هى التى تصد الناس
عن المهاجرة إلى ما وراءها ، وتردهم على أعقابهم إلى تمزج النعيم
المادى . وذلك هو مرض الإرادة المنهارة ، أو الطفولة المتميعة
فإذا حمل الطفل على الفطام ، وسامه أبواه مشقة الحرمان ،
تماسكت إرادته ، واستحصدت مرته ، واجتاز فترة الانتقال ،
واستقبل ما وراءها من عهود رشده وإدراكه ، وتفتحت أمامه
صنوف من اللذات ما كان يحلم بها وهو يلقم ثدى أمه .

وإذا كنت تحس فرقا هائلا بين عهد الرضاع ، وما بعده من عهود . فرقا في الإدراك والمعرفة . وفرقا في العزيمة والاحتمال ، وفرقا في تعدد صنوف اللذات . إذا كنت تحس هذا الفرق الهائل ، فاعلم أنه يتضاءل جداً حتى يكاد يتلاشى ، إذا قورن بالفرق بين الرجل يلقم ثدى هذه الدنيا وبين الآخر يطلب نعيمه في المحيط الروحي . . كم بينهما من فروق في الإدراك والمعرفة ، وفروق في العزيمة والاحتمال ، وفروق في صنوف المسرات كيفما وكما .

فإذا ذهبت تبشر بذلك بين الناس فلم يسمع لك أحد ، وظنك الرقعاء خيالاً غير واقعي ، فاعلم أن الطفل إذا أقسم له أبواه ، أن الفطام خير له من الرضاع ، لما استمع ، وإذا استمع ، لما فهم ، وإذا فهم ، لما رضى أن يترك ما هو فيه ، وأن إصراره على شأنه لا ينهض دليلاً على خطأ أبويه ، ورشد ما هو عليه ، كما أن هذا الإصرار لا يصح أن يثنى الأبوين الراشدين ، عن قمع هوى طفلهما بكل وسيلة ، حتى ينقلاه إلى ما فيه صلاحه .

الحاجة إلى قائم :

نقول هذا حتى يعلم الجميع ، أن الإنسانية في حاجة إلى قيادة حازمة ، رشيدة ، رحيمة ، تحدد لها مثلها الأعلى ، وهدفها العام ، في جد وصراحة ، لا في عبث ، وكذب ، ورياء . ثم تثير حماسة

الأفراد والجماعات لهذا الهدف ، وتشدد فيهم قوى العصبية له . .
وتتدرج بهم نحوه في صدق ، وقوة وإصرار ، وتنقلهم خلال
ذلك من رشد إلى أرشد ، ومن صلاح إلى أصلح ، حتى يصيب
كل من الهدى ، والتقى ، وسعة المعرفة ، وهناءة الضمير ، ما قدر له
أن يبلغه .

يومئذ ينظر الناس إلى ماضيهم ، كما ينظر الرجل إلى أيام
طفولته . ويومئذ لا تثير فيهم زينة الحياة الدنيا ، إلا بقدر ما يشور
في قلب الرجل من الشوق إلى ثدى أمه ، فهل يزاحم عليه
ويتنافس ؟ . .

لقد بلغوا الرشد ، وعرفوا الحقائق ، وزهدوا في الذي هو
أدنى ، بالذي هو خير .

نحمر العمران الروحي :

ويومئذ تكثر الخيرات ، وتضاعف الثمرات ، بما حل في
القلوب من أرواح السلام ، والطمأنينة ، والتقى .

يومئذ يكون ذلك حقاً ، لا تجوزاً ، ولا مبالغة ، فإن من
الأرزاق ما يستثار بتقوى القلوب ، كما أن منها ما يدرك بغير ذلك
من الوسائل المعهودة . والله سبحانه أخبر أنه استودع الأرض
سراً من بركته ، قبل أن يقدر فيها أقواتها ، وجعل فيها رواسي

من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، في أربعة أيام سواء للسائلين .

ولا خير في الكسب بدون بركة ، ولا سبيل إلى البركة بدون تقوى ، فهي وحدها مفتاح الخير لأرزاق السماء والأرض ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا ، واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، « ولو أنهم أقاموا التوراة ، والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون .

يومئذ تكون الأرض دار سلم وطمانينة ، ومعبداً لله رب العالمين .

وإن وراء ذلك لأبواباً من المعاني وآفاقاً من الحقائق ، تدور حول تجلية الرسالة العليا والغاية الأخيرة . ولكن حسبنا ما تقدم .

والآن يا أخى : لقد حدثناك عن أعمال كثيرة ، يعملها الإنسان في عالم المسادة ، وعالم الروح ، وأريناك على قدر ما سمح به المقام — بعض ما ينتظر الإنسان من واجبات كثيرة ، نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو الناس ، أو نحو رسالته في هذا الوجود . وليست الأعمال عند الله فوضى ، فليكل عمل نظام يجرى عليه

وأسباب يستعان بها عليه ، وسنة محكمة ، تفضى بسالكها إلى العقبي
لا محالة .

ولسكل عمل كذلك ثواب ، يعجل منه في الدنيا ما يعجل ،
ويدخر منه للآخرة ما يدخر ، ولسنا بصدد الحديث عن كل عمل
وسنة ، فليطلبه من شاء في كتاب الله وسنة رسوله .

ولكن لما كان الناس ، لا يشغلون أنفسهم الآن إلا بنوع
واحد من العمل ، ولا يكادون يعرفون غيره ، هو العمل لكسب
القوت ، آثرنا أن نخص هذا النوع ، بكلمة فيها بعض التفصيل ،
راجين أن يجد فيها الجميع إن شاء الله ، ما يقنعهم بشمول الإسلام
ودقة إحاطته بالأمور .

الدين بحث على العمل :

وقد صدرنا هذا الفصل بآية كريمة من كتاب الله الكريم ، وهي
صريحة في الحث على طلب الرزق ، بل إنها تزيد فتأمر الإنسان
أن يطلبه في مناكب الأرض وأقطارها الواسعة متى كانت ظروفه
تقتضى ذلك .

والدين بهذا عملي منطقي ، يساوق سنة الحياة وينهض أبناءه
إلى مسيرتها ، ولا ينتظر من دين يأتي من عند الله سبحانه
إلا هذا .

ولقد حث نبينا صلوات الله عليه على العمل ، فقال في فضل الصناعة :

« ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » « وخير السكسب ، كسب الصانع إذا نصح » .

وقال في فضل الزراعة « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، إلا كان له به صدقة » .

وروى الإمام أحمد أن صحابيا قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين يقول : « من نصب شجرة ، فصبر على حفظها ، والقيام عليها حتى تثمر ، كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل » .

أما في التجارة فحسبك فعله فيها عليه السلام ، بعد قوله الشريف : « أحل ما أكل الرجل من كسبه ، وكل بيع مبرور » .

نعم حسبك بعد هذا فعله الذي نرى الكثيرين لا يلتفتون إليه ، فإنه بعد أن فرغ من بناء مسجده ، والمسجد هو بيت الله ورمز أعمال العبادة الروحية ، كان أول ما عني به تنظيم الحياة التجارية ، ورسم سوقها للناس ، وتحريرها من كل دنى مستغل ، أو طامع محتكر :

كان سوق المدينة في بني قينقاع ، حتى من اليهود ، وكانوا فيها على مسجيتهم الخبيثة من أكل السحت وعبادة المال ؛ فكانوا يضربون

على الناس فيها الخراج ، ويبيعون فيها الأماكن أو يؤجرونها ،
أو يحتكرونها . . . ذلك إلى أن سيادة التقاليد اليهودية في هذا
السوق كانت من مظاهر اخضاع الحياة الاقتصادية لغير سلطان
الإسلام وتعاليمه ، فرأى الرسول إزاء ذلك كله أن ينشئ سوقا
جديدا ، فضرب قبة ليقوم حولها الناس بالبيع والشراء .. ولكن
ذلك غاظ الزعيم اليهودي المعروف كعب بن الأشرف ، ويظهر
أن القبة كانت مضروبة في منطقة قريبة منهم أو واقعة تحت
نفوذهم ، فضى إليها هذا الفاجر الحاقد ، وقوضها وقطع اطنابها ..
ولم يشأ الرسول أن يجعل لهذا العمل الصغير قيمة ، فقال عليه
السلام : « والله لأضربن له سوقا هو أغبط له من هذا » وفي
رواية : « لا جرم ، لانقلنها إلى موضع هو أغبط له من هذا ،
ومضى إلى مكان فسيح صالح حر وضرب فيه برجله وقال : « هذا
سوقكم ، فلا يضيق ، ولا يؤخذ فيه خراج » .. وفي رواية : « هذا
سوقكم ، فلا ينتقص ، ولا يضرب عليه خراج » .. وفي ثالثة :
« هذا سوقكم ، لا تتحجروا ولا يضرب عليه الخراج » .

وقامت السوق قوية منظمة ، فكان للخيل مكان ، وللابل
غيره ، وللغنم سواهما ، ولكل عرض من العروض مكانه الخاص ،
كالسمن ، والزيب ، والتمر ، والقمح وهكذا .

وكان أهم ما عني به عليه السلام ، هو حرية السوق ، وإتاحة

الفرص المتكافئة للجميع على السواء ، ومقاومة كل سلطان أو مظهر يراد به التأثير أو الاستئثار بأى امتياز . . . فقع أنه حرم ضرب الخراج ، حرم أن يحتكر أحد لنفسه مكانا في السوق ، أى يضرب حوله علامة تدل على حيازته والاستئثار به . . . وذلك قوله عليه السلام « هذا سوقكم لا تتحجروا . . . » ولقد حدث أن رأى عليه السلام خيمة مضروبة لمحمد بن مسلمة يباع فيها تمر فغضب وأمر بإحراقها لما فيها من شبهة احتكار الأماكن ، واحتمال ادعائها بوضع اليد ، أو الاستئثار بها بحكم العادة .

وكان عليه السلام يتعهد السوق ببره ونصحه وإشرافه من آن لآخر ، فمرة يضبط التاجر الغشاش الذى وضع الطعام الجيد أمام الأنظار ليستتر به ما تحته من طعام مغشوش ، فيعلن فى الناس ثلاثا : « من غش فليس منا » . . . ويأمر التجار أن يكون شأنهم التسهيل والاسماح فليزن كل منهم وليرجع نائيا بنفسه عن موطن السكنازة والتطفيف . . . ورأى تاجرا يبيع صنفا جيدا بأرخص مما عليه السوق ، فلما علم منه أنه يحتسب ذلك ابتغاء مرضاة الله ، أعلن إلى أهل السوق كله : « أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا ، كالمجاهد فى سبيل الله ، وإن المحتكر فى سوقنا كالملاحد فى كتاب الله » .

ويستطيع من شاء أن يتخذ من هديه عليه السلام فى التجارة وأسواقها قواعد قيمة سامية ، لدستور اقتصادى قائم على العدالة

والحرية ، وتكافؤ الفرص ، خال من عوامل الطمع والغش والاستغلال الدنيء . . أما في موضوعنا الذى نحن بصدده ، فنحسب أن ما سقناه من النصوص والآيات كاف للتدليل على أن الدين يأمر بالعمل صناعة ، وزراعة ، وتجارة وغيرها .

ولقد مضت سنة القرآن على ذلك بعد رسول الله ، فهذا عمر رضى الله عنه يقول كلمته الذائعة الماثورة « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول ، اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » فالدين على هذا يجعل العمل من سنة الحياة ولا يرضى لأبنائه القعود والتخلف ، ولو كان خلوة فى زوايا المساجد أو انقطاعاً فى منعزل الصوامع ، ولقد رووا أن المسيح عليه السلام رأى شاباً منقطعاً للعبادة لا يفتر ، حتى أعجب الناس به ، فقال ، ومن يعمل ليقوتك ؟ فقال الشاب : أخى !!

فقال المسيح عليه السلام : أخوك أعبد منك .

هذا نظر أرباب البصائر من المرسلين وأئمة الأديان ، لا يخطئون سنة الله فى قول أو عمل ، لأنهم ينظرون إلى الحقائق بالنور الذى يكشف لهم كل شيء ، ومثل ذلك ما جاء عن أبى سليمان الداراني « ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك ، وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد ، وقال عمر رضى الله عنه « ما من موضع يأتينى فيه الموت — بعد الشهادة

في سبيل الله — أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشتري ؛ ولم يقل مسجد أتعبد فيه . أو خلوة أسمى في مشاعرها إلى الملاء الأعلى .

الدين يقدر العمل :

والدين بعد هذا يقدر العمل ، ويجعله من الشعائر الواجبة .
أسمعت أيها الشاب مدلول هذه الجملة ؟
إن الدين لم يأمر بالعمل فحسب ، بل قدسه أيضاً ، وجعله من الشعائر الواجبة ، فأين نجد مثل هذا في نظام أو قانون ؟
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ، ذات يوم ، فنظروا إلى شاب جلد قوى وقد بكر يسعى ... فقالوا :
ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ؟

فقال عليه السلام : لا تقولوا هذا . . فإنه إن كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ، ليغنيهم ويكفيهم ، فهو في سبيل الله وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً ، فهو في سبيل الشيطان » فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ترى يخبر بأن عمل المرء لسكسب قوته إنما هو عمل مقدس لأنه في سبيل الله .

وتراه عليه السلام يبشر العامل المجتهد بمغفرة الله سبحانه ، فيقول : من أمسى كالاً — أى متعباً — من عمل يده أمسى مغفوراً له .

ويزيد في البشارة فيقول : من طلب الدنيا حلالا ، وتعففاً
عن المسألة وسعيّاً على عياله ، وتعطفاً على جاره ، لقي الله وجهه
كالقمر ليلة البدر !! .

إذا سعت لنفسك أو لذويك فهو في سبيل الله .

وإذا تعبت في عملك استوجبت مغفرة الله .

وإذا طلبت الرزق حلالا ، لقيته في الآخرة على خير حال .

واعلم أن هناك شعائر دينية . تتفاوت في لزومها وضرورتها ،

بحسب مكانها من الدين ... فبعضها واجب ، وبعضها مندوب ،

وبعضها نفل ، وبعضها مباح ، وأقوى هذه كلها الواجب فإذا علمت

هذا ، فاعلم إلى جانبه أن أئمة المسلمين حكموا بوجوب عمارة

الأرض حتى تكون زاهرة صالحة .

قال الجصاص في كتابه أحكام القرآن عند تفسير قوله

تعالى في سورة هود : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم

فيها » . « أى أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه .. وفيه الدلالة على

وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية » . أى أن

الدين لم يجعل عمارة الأرض من النوافل أو المندوبات ، بل جعلها

من الشعائر الواجبة ، التي يثاب فاعلها ، ويعاقب تاركها ، ويحكم

بالفسق على منكرها .

ومن الطريف أن الأئمة اختلفوا فيما بينهم : أى الأعمال

أفضل ، وأقرب إلى الله ... ؟ التجارة ، أو الزراعة ، أو الصنعة ؟
وافترفوا في ذلك إلى مذاهب :

فقال جماعة منهم الشافعي : التجارة أفضل المكاسب ... وقال
آخرون : بل الزراعة أطيبها ، لما فيها من معنى التوكل على الله ،
ولما فيها من النفع العام للآدمي وللدواب ، والطيور .

وقال النووي : والصواب أن أطيب المكاسب الصنعة ،
ويستأنس لهذا الرأي بقوله عليه السلام : « ما أكل أحد طعاما قط
خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام
كان يأكل من عمل يده » ،

فهذه المفاضلات الطريفة التي تقرؤها في أول الجزء الثالث من
كتاب سبل السلام للصنعاني تفيد أنه كان من المقرر عند الأئمة
رضوان الله عليهم وجوب العمل ، وأنه شعيرة من شعائر
الدين ، وأنهم على هذا الاعتبار كانوا يفاضلون بين أنواع العمل ،
أيها أعظم قربة إلى الله سبحانه وتعالى .

العمل ... هو بمن الحياة :

إقرأ معي الآية التي صدرنا بها هذا الفصل . إقرأها مرة أخرى
« فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ،

فالمشي هنا يسبق الأكل ، وهو الوسيلة التي توصل إليه ،
فمن مشى أكل ، ومن لم يمش فكيف يأكل ؟

هذا مفهوم الآية الواضح ، وهو منطق الفطرة : وقانون
العمران ، فمن جسد وجد ومن زرع حصد ، والثروة دائماً
بنت العمل .

والذى نخرج به من هذا الكلام : أن على كل مناضرية
يؤديها لقاء ما يـأكل .. بل هو شيء أهم من الضريبة وأكبر ،
فعلى كل منا أن يدفع للحياة ثمن ما يـأكل ، والثمن هو السعى ،
والعمل ، والجد ، فمن دفع الثمن فقد حل له الطعام ، ومن قعد
راغباً مختاراً فليس له جزاء إلا الحرمان .

فإذا رأيت بعد ذلك إنساناً قاعدا لا عمل له ، أو هو يعمل
ولكن فى اللهو ، واللعب ، والقمار ، والرقص ، والخمر ، وسهر
الليل ونوم أكثر النهار ، إذا رأيت إنساناً هذا شأنه ، ومع هذا
يأكل ، ويشرب ، ويحوز الثروات ، فاعلم أنه لص من لصوص
الحياة ، وهو آفة اجتماعية ، يجب علاجها .

ليست هذه الأرض « تسكية » ، ولم يخلق الله أهلها ليكونوا
فيها « بلطجية » أو « تنابلة » لم نقرأ هذا فى كتاب ولا فى سنة
ولا فى قانون .. نقول هذا لما نراه عندنا من أصناف لا عمل لها
يعود على الحياة فى يومها وليلها بشمرة إيجابية ، ومع هذا فى
أيديهم المال ، والجاه ، والسلطان فمن أين جاءهم هذا ؟ من الميراث ؟
لا اعتراض لنا على الميراث ، ولكن كيف نمت فى أيديهم

هذه الأموال الموروثة ، بل كيف بقيت معهم على القعود والكسل واحتملت ما ينفقون على اللهو والترف . ؟

إن هذا شذوذ عن قانون الحياة ، وخروج عن الأوضاع الطبيعية للمجتمع السليم ، ولا بد لنا من النظر فيه ، فإنه لن يستقيم لنا حال أبداً ما دمنا بعيدين في حياتنا العملية عن قوانين الطبيعة ، والسكوت على هذا إنما هو سكوت على العلة ترعى في جسم المريض حتى تأتى عليه .

« (*) » إن الحياة ضئيلة أن تمنح خيرها إلا للعالمين ، ولسلك واحد من أبناء الحياة رسالة يؤديها إليها ، رسالة من العمل المثمر والجهد الإيجابي الذي يدفع عجلتها إلى الأمام ، والقوة التي ينفخها في كيائها من روحه ، ثم هي تمنحهم أجورهم بعد ذلك مقابل ما يمنحونها من قوة وحياة ، تمنحهم بقدر ما يمنحون ، فأكثرهم حظاً منها ، أكثرهم نفعاً أو عملاً لها .. فما جدوى هؤلاء العجزة على الحياة ؟ وأى رسالة أدوها إليها . غير الكسل والقعود والخطيئة على عباد الله العاملين ؟

ترى هل اختل قانون الحياة ، فأضحت تمنح العجزة والتكسالى وتحرم العاملين الدائبين ؟ .. إن قانون الحياة لا يتخلف ، وليس للعاجز إلا أن يعيش على عطف العاملين ، وفضل ما يجدون به

(*) ص ٩٠ من كتاب تذكرة الدعاة المؤلف طبعة دار الكتاب العربي .

عليه . . إذا فكيف عكست الأوضاع وغدا الفقر والعري ،
والجوع ، والضعف من نصيب العاملين ، وانتقل المال والأمر
والنهي إلى جانب المتعطلين القاعدين ؟ . .)

أيها الشباب إذا كنت تنشُد الإصلاح حقاً ، فدع الهتاف
والجرى وراء الأفراد والهيئات ، وانظر إلى الحياة هذا النظر
الصادق العميق ، واجعل إصلاحك قائماً عليه .

وها نحن أولاء قد جلونا لك ناحية من نواحي أمراضنا
الاجتماعية ، فعليك أن تتوجه إليها بالعلاج في حزم وحكمة فذلك
خير لك من الاستماع إلى ضلالات الذين يشككونك في دينك
وينزعون ثقتك به .

خير لك أن تبحث أين يعيش لصوص الحياة ، وما نخالك
تجهل أين يعيشون ، فإذا عرفتهم فعليك أن تمنحهم من نفسك كل
ما يستحقه اللص العادي من الاحتقار والاستقذار ، ولو كانوا
من كبار القادة والزعماء ، فإن هذا من وسائل العلاج النافعة ، ولن
يستقيم لنا خلق ، أو تصح لنا حال ، ما دمنا نسخر بالاحترام على
أهل الثروة ، وفيهم المجرم وغير المجرم ، بينما ننظر إلى الضعيف
الشريف الذي يأكل رغبته بعرق جبينه ، نظرة الهوان والازدراء
عليك أن تصحح هذه الموازين ، ليسلم لك المجتمع النموذجي
الذي نحلم به ونعمل له .

على كل منا أن يدفع ثمن ما يأكل . . فكل من يدفع هذا

الثلث ، فهو الرجل الشريف ، وكل من يأكل دون أن يدفع ، فهو
أثم لص لا شرف له ولا كرامة ، وهو عنصر عفن لا يورث
الحياة حوله إلا العفونة والفساد ، وقد أوجب الدين علاج هذه
العناصر ، بما يقطع شرها أو يصلح أمرها .

فيأتيها الذين يجرون وراء الأشخاص والهيئات ، ويرهقون
حناجرهم بالهتاف الفارغ وغير الفارغ ، إليكم هذا المعنى فاجتمعوا
عليه واعملوا له .

« العمل ضريبة الحياة . . . أو هو ثمن الحياة ،
اعملوا أن يكون لكل عامل ثمر عمله كاملاً ، ولكل قاعد ثمر
قعوده كاملاً . ليس له أكثر من ذلك أو أقل » ولا يظلم ربك أحداً .

العمل صو لكل إنسان :

والآن فلنعد إلى الآية الكريمة مرة أخرى ، لنقرأ : « هو
الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا . . . الخ .

فترى أنها تجعل الناس جميعا شركاء في هذه الأرض ، لأن الله
يخاطبهم بقوله : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا »

وما دام الإنسان لا يصل إلى حقه المشروع في هذه الشركة
إلا بالعمل فمن حقه أن يعمل ، ومن حقه أن تتاح له فرص هذا
العمل ، وليس لأحد كائنا من كان ، أن يحرمه هذا الحق أو يحول
بينه وبينه . . .

على السلطة الممثلة للجمتمع ، أن ترعى هذا الحق ، وأن تمكن كل عامل من أن يعمل ، وأن تفتح له الأبواب إذا سدت . . . عليها أن تزيل ما أمامه من العقبات المصطنعة وغير المصطنعة ، ولن تقدر أمة لا تقوم السلطة فيها على رعاية أمثال هذه الحقوق ليس من قصدنا في هذه الكلمة ، أن نعدد أسباب التعطل ولكننا نقرر حق كل إنسان في العمل ، ونسجل هذا الحق لترتب عليه نتيجتين طبيعيتين :

الأولى : أن كل إنسان أو جماعة تعمل لحرمان أحد من العمل بوسائل مباشرة أو غير مباشرة ، فعملها غير مشروع وهو جريمة اجتماعية تحمل في جوهرها معاني السلب والنهب ، بل تحمل في جوهرها معاني الخنك على الناس أن يموتوا من الجوع ؛ فعلى السلطة الشرعية حينئذ أن تقف كلا عند حده ، وأن تحمي كل إنسان أن يقع عليه مثل هذا العدوان ؛ ولا تستطيع حكومة أن تحمل صفة الشرعية إذا هي تواطأت مع الأقوياء على الضعفاء أو تهاونت وسمحت على الأقل بوقوع مثل هذه الجرائم .

الثاني : أن المرء قد يتعطل وهو قادر على العمل ، ولكنه قليل الحيلة ، لا يدري ماذا يعمل ، ولا أين يتوجه ؟ فواجب على الأمر حينئذ أن يبحث له عن عمل فورا ، وإلا أعطاه من المال ما يسد حاجته حتى يجد له عملا .

مسئولية الدولة على الفرد :

فالدولة مسئولة عن الفرد في جميع حالاته عاملا كان أم عاطلا . هذا هو حكم الشريعة الإسلامية : « فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والإمام راع وهو مسئول عن رعيته » . . . ولست أفهم للمسئولية معنى إذا لم يكن الحاكم مسئولا عن أهل البطالة من رعيته ، مطالباً بتعهد أولئك العاملين الذين لا يحصلون على السكينة من أجورهم . . وإن معاني المسئولية تصبح كلها لغواً وخداعاً ، إذا انسلخت مسئولية الراعي عما يهدد رعيته من الجوع والحرمان .

فالدولة ملزمة أن توجد للعامل عمله ، وإلا أعطته من المال ما يكفيه عن السرقة والسؤال ؛ حتى لا يذله الجوع ، ويضعضه الحرمان ، ويسلمه اليأس إلى النقمة والقيود عن واجبه نحو المجتمع لما قيل أن مصر ستعلن الحرب على الألمان أو على غيرها يوماً ما سمعت عاملاً يقول لآخر : فليذهب الأغنياء وأبناء الأغنياء ليقاتلوا ، فإنما يدافعون عن أموالهم ولذاتهم ، وما هم فيه من نعيم . أما نحن فماذا لنا في هذا البلد ندافع عنه ؟ ماذا لنا غير الجوع والعري والذل والمرض ؟ .

لم أتهم وطنية هذا العامل ؛ وإنما اتهمت أولئك الذين ظلوه واضطهدوه ؛ حتى جعلوا الحياة في فمه مرة المذاق ، ورحم الله الشاعر السابق إذ يقول :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر في ثمره
ولو كانت موازين العدالة عندنا حساسة مرهفة تقيم القسط
بين الناس وتقدر لكل عامل عمله ، وترعى لكل ذى حق حقه ،
لألفينا هؤلاء يتقدون حماسة ويشتهلون وطنية ويبذلون في سبيل
بلادهم كل مرتخص وغال .

وأن هذا لا يكلف الدولة قليلا أو كثيرا ، لا يكلفها إلا أن
تدرك واجبها ، وأن تفقه معنى الولاية على الناس ؛ ثم تعمل بما تدرك
وتفقه ، ففهم حقيقة الأعباء ، والرغبة في القيام بها ، هما
دائما في كل الأمور سبيل الإيقان وميزان الإحسان فيها على
خير وجه . . والدولة بإدراك أعبائها ، وفهم حقيقة مسؤوليتها ،
وقيامها فعلا برعاية حقوق الناس ، لن تخسر شيئا ، لأنها ستكسب
العامل ؛ وإذا كسبت العامل فقد كسبت كل شيء . . كسبته
مواطننا شريفا بعيدا عن مواطن الجريمة ؛ وكسبته جنديا شجاعا
غيوراً على حرمان بلده ، يبذل دمه عند الخطر في سبيل مقدساته ؛
وكسبته قوة عاملة ناجحة في ميدان الانتاج والاقتصاد . . وكسبته
رمزا مثالا لعزتها وصلابة جوهرها لا عنصرا متضععا من
الذل ، والخنوع ، والهوان ، والتضور .

ولقد أدرك كثير من الدول هذه الحقائق والمعاني في العصر
الحديث ، واعترفت بوجوب رعاية الإنسان ، وحقوق العامل ،
وانشأت لذلك وزارات أو إدارات ترعى هذه الحقوق ، وتكفل

لكل عامل عمله ، وكفائه من الأجر ، وترد عنه ظلم الطامعين ،
وجشع المستغلين من أصحاب العمل ، ورءوس الأموال ..

أنصاف الآخرة في مصلحة العمل :

ونجد أنفسنا في هذا المقام — مع الأسف الشديد —
مضطرين إلى الشكوى من الأسلوب ، والعقليات التي تسود مصلحة
العمل ، عندنا .. ومصلحة العمل هي الإدارة التي أنشأتها الحكومة
للنظر في مصالح العمال ، وحل ما ينجم من المشاكل بينهم وبين
أصحاب العمل ، فكانت بلاء على العمل والعمال !! ولا نعرض
هنا لما يهمس به العمال أو يجهر به في أوساطهم من وقوع الموظفين
أو كبار الموظفين تحت سلطان الهدايا التي تقدم من رجال
الأعمال ، فذلك عليه عند الله ، وإنما نعرض لأسلوب الغطسة
وعقليات أنصاف الآلهة التي تسيطر على هذه المصلحة ، كأنما سوء
الحظ لم يكتف بالقوانين الناقصة المبتورة ، حتى أقام عليها حكما
من شر خلق الله فهما للواجب ، وأسوئهم تقديرا للمعانى الإنسانية !!
يتعطل المتعطل فيذهب إلى مصلحة العمل لينخطر بها بحاله
وهذا إجراء سليم لا غبار عليه ، بل إنه واجب ينطوى على معان
كثيرة خطيرة . ولكن رجال المصلحة لا يدركون هذه الحقائق
ولا يشعرون إلا بأن العامل مخلوق بغيض ، وقبح ، حقير ، لا يستحق
شفقة ولا رحمة ، والويل له إذا جاء يشكو أو يطلب عملا ،

فهناك إدارة الأمن العام تجرد عليه خيلها ورجالها محافظة على مزاج رجال المصلحة أن يتعكر . أو ليست المحافظة على هذا المزاج من أخص شئون الأمن العام للدولة ؟

لا يا هؤلاء . إن العاقل حين يخطر ولى الأمر بعطله إنما يؤدي واجباً وطنياً خطيراً ، ويعلم عن معان سامية في نفسه . إن تعطل العاقل معناه وقوف قطعة من آلة العمل الكبير للوطن توشك أن تؤثر على غيرها ، فإذا تنبه المسؤولون المخلصون بادروا بعلاجها وإدارتها ، أى أوجدوا عملاً للعاقل ليعود دولا ب الاقتصاد العام إلى نشاطه .

ومعنى تعطل العامل ، أن قوى الإنتاج أصيبت بنقص وهبوط ، وهل الإنتاج إلا الدعامة الأولى للحياة المادية فى الأمم ؟ ومعنى تعطل العامل ، أن الأمة أصيبت بأفة اجتماعية خطيرة تستهلك ولا تنتج ، وتأخذ ولا تعطى . ولا بقاء لموارد البلاد على هذه المحال التى تبتلع ولا تعوض !!

ومعنى تعطل العامل كذلك ، أن قلبه أصبح معرضاً لجرائم الجريمة والسرقة ، تبيض فيه وتفرخ ، فإذا ترك وشأنه ، بلغ الغاية من الفساد والشر .

ليس أعدل فى الوجود من قضية العامل الذى يتعطل ، فيقصد ولى الأمر ليخبره بعطله .. وليس أشرف فى الوجود من ذلك الذى رأى أن التعطل يسلبه إلى الحاجة . والحاجة

تسليمه إلى الذل، وإلى السرقة وأنواع الجرائم؛ فربأ بنفسه أن يعرض شرفه لهذا المصير. فعرض أمره على ولي الأمر... أفهؤلاء يستحقون المطاردة في كل مكان، يدق البوليس رؤوسهم بالهراوات، ويستحق أجسامهم بمختلف الكدمات؟

أيها الناس: اعلّموا أن العمل هو قانون الله لعمران هذه الأرض، فإذا كان العمران لا يعينكم، فاعلموا أن العمل هو الوسيلة الطبيعية المشروعة لتحصيل القوت والرزق؛ ولا وسيلة له غير ذلك؛ فإذا فقد الرجل هذه الوسيلة، فقد فقد حقه المشروع في هذه الحياة... فإذا طالب بالعمل فإنما يطالب بحق أزلي، لا بصدقة أو منحة... وعلى الدولة أن تجيّبه إلى هذا الحق؛ وإلا فلن يقدر حق آخر إذا قوبلت هذه القضايا بالهوان والإهمال. إن العامل إذا طلب العمل، فإنما يطلب أن يعان على شعيرة دينية أمر بأدائها. والله سبحانه يقول: «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، فإذا قعد ولم يمش، فقد عصى الله وخالف أمره. وقد رأينا القرآن الكريم يأمرنا أن نذر البيع وسائر الأعمال حين تحين صلاة الجمعة، ثم يأمرنا فيقول: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله». ومعنى هذا أن المرء مقسم بين سعي وصلاة. وعمل وعبادة، ومسجد وسوق، فمن قعد عن العمل أغضب الله كمن قعد عن الصلاة! ومن ذهب إلى ولي الأمر ليطلب إليه عملا فهو ساع

في عبادة الله ؛ كمن يذهب إليه ليمهد له سبيل الحج أو أية شعيرة دينية أخرى .

وأما أنتم أيها العمال فاعلموا أن الدين يحضنكم ، والإسلام يقدس حقوقكم ؛ فإذا ناديتكم بهذه الحقوق ؛ فاهتفوا معنا بالإسلام الذي قدسها ؛ ورفعها إلى مقام الشعائر الواجبة .

الرسول يقرر معنى العامل في العمل :

روى البخاري وغيره ، أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يطلب إليه أن ينظر في أمره لأنه خال من وسائل الكسب ، ولا شيء عنده يستعين به على القوت . . . وهنا ذكر الرواة كلاما آخر ، قالوا بعده ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بقدم ، ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ، ثم دفعها للرجل ، وأمره أن يذهب إلى مكان عينه له ، وكلفه أن يعمل هناك لكسب قوته ، وطلب إليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله ؛ فعاد الرجل يشكر لرسول الله صنيعه ، ويذكر له ما صار إليه من يسر الحال .

فإذا عرفت أيها الأخ أن الله لم يرسل الرسل ليتسلى الناس بأخبارهم ، وحكاياتهم ، بل لتكون أعمالهم وأقوالهم شرعا واجب الاتباع . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، إذا عرفت هذا أدركت أننا في هذه الحادثة ، أمام شرع عمالي مقدس

شرعه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سرنا عليه واتبعناه ،
أرضينا الله ورسوله وأسعدنا المجتمع والعال ، وإذا أبطلناه
وخالفناه ، فقد تعرضنا لغضب الله وعذابه ، وفساد المجتمع وشقاء
العال ، « ولا يظلم ربك أحدا » وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون .

ونحن نخرج من هذه الحادثة بالمبادئ الآتية .

الأول : أن العاطلين كانوا يرون لهم حقوقاً على الدولة
فبذهبون إلى ولى الأمر باسم هذه الحقوق ، ليدبر لهم أمرهم
بما يراه . . وكانوا يذهبون بملء الكرامة والعزة ، لأن صاحب
الحق لا يكون ذليلاً . . . وما نظن طلاب الإصلاح يحملون
بخير من هذا .

الثانى : أن الدولة تقر العاطلين على هذه الحقوق ، وتعترف
لهم بها ، ولا تنكرها عليهم ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، استمع إلى شكاية الرجل ولم يزره . . . وأقره على
حضوره إليه ولم يطرده .

وهذه إنسانية سامية لا تنبع إلا من معين الإسلام ، فلعل
شرار خلق الله من أهل الكبر والغطرسة ، الذين يضيقون بالعمال
ويزجرونهم يتعظون بهذا الهدى النبوى ويعملون به .

الثالث : أن الدولة لا تسكتفى فقط بالاعتراف بحقوق
العاطلين ، بل تدبر لهم العمل فوراً ، ولا تتركهم إلى التسويف

والملاحظة ؛ فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يأمر الرجل بالانصراف إلا بعد أن دبر له العمل والمكان الذى يعمل فيه . وهذا أقصى ما تطمح إليه أنظار العمال فى العالم .

الرابع : اطمئنان الدولة على يسر العامل ورخائه ، فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يكتف بإيجاد العمل للعاطل ، بل طلب أن يعرف ما صارت إليه حالته ليطمئن عليه . وهذا هو السمو الذى تفرد به الإسلام ، ولم تصل إليه شريعة من الشرائع ، ولا نظام من الأنظمة ، وما نظن العمال طمعوا فى مثل هذا ولكن الله الإسلام دين الله ، ونعمته الجامعة لكل خير وسعادة .

الخامس : وهذا المبدأ الخامس أشار إليه الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء ، إذ ندب ولى الأمر بعد كل هذا أن يزود العامل بآلة العمل ، فللنجار آلة النجارين ، وللحداد آلة الحدادين وهكذا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جهز الرجل بآلة العمل ، إذ أحضر القدوم ووضع لها اليد ، ودفعها إليه . . . ولم نجد فيما نعلم شريعة نصت على مثل هذا ، فإذا وجدت فهو نهاية ما يطمح إليه العمال من أنواع الرعاية والكرامة والحنو

أيها الأحكام : هذه شريعة رسول الله غراء ناصعة ، فإن أصغيتم إليها وعملت بها ، أرضيتم الله وانصفتم أنفسكم ، وأسعدتم الناس . . . وإن أصررتم واستكبرتم ، فسوف يأق الله بقوم يحبهم ويحبونه ، يقيمون حدوده ، وينفذون شريعته ، ويعملون كلمته ، ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله ، ولنعلن نبأه بعد حين . .

مبدأ تقرير الأجور :

استحقاق الأجر على العمل بذهية لا تحتاج إلى دليل ؛ فالعمل هو الوسيلة الطبيعية الأولى لاستحلال خيرات هذه الأرض .

وليس هناك من عمل لا أجر عليه إلا أن يكون صاحبه رقيقاً ؛ وقد مهد الإسلام تمهيداً قوياً لإلغاء هذا الرق ، حتى قضى عليه نهائياً في العصور الأخيرة .

والإسلام يهتم أشد الاهتمام بتقرير أجر العامل على العمل ، حتى ليشترط فيما يشترط أن تكون قيمة الأجر معلومة محددة ، وذلك قوله عليه السلام : « من استأجر أجيراً فليسم له أجرته » حتى يطمئن خاطره إلى قيمة ماله من أول لحظة ، ولا يتعرض فيما بعد لأي احتمال من احتمالات الغبن ، حتى أنهم قالوا إذا استؤجر جزار على ذبح شاة ، وله في نظيره جلدتها ، لم تصح الإجارة ، لما في ذلك من احتمال الغبن ، إذ قد يكون الجلد رقيقاً حيث لا يكون رائجاً إلا الغليظ ، أو غليظاً حيث لا يكون رائجاً إلا الرقيق ، أو قد تظهر به عيوب ليست واضحة قبل السلخ .

وهذه حساسية في الاحتياط امتاز بها الإسلام دون سائر القوانين ، في كفالة مثل هذه الحقوق ؛ ولا شك أن العامل

يجد في هذا الحنان والرعاية والحرص عليه ما يزيده إيماناً بدينه
وحباً له

ولا ريب أن هذا الشرط مما يسد ذرائع الماحكات أمام
أولئك الذين يستضعفون العامل ، فيفتحون له باب المساومات
على أجره بعد أن يكون قد انتهى العمل .

أساس تقرير قيمة الأجر :

والعمال قاطبة نوعان :

الأول : لا يفرد نفسه لصاحب العمل ، ولا يتقيد بخدمته
دون غيره ، فهو لكل الناس .

وحكم هذا الصنف أن يتقاضى الأجر المتفق عليه .. فإذا كان
العمل مما يجري فيه العرف بأجر المثل في البيئة ، أخذ أجر المثل
كما يحصل عادة مع الحلاقين ؛ ويقوم العرف الشائع حينئذ مقام
الاتفاق والعقد ، فلا ضرورة لتعيين الأجر في مثل هذه الأمور
مادام العرف الطبيعي العادل قد قام بتعيينه .

وقد يحصل أن تتأثر البيئة بعوامل الجور والظغيان ، فلا يصبح
للعرف قيمة ، فعلى العامل حينئذ أن يتمسك بحقه الذي سنه له
الشرع : « من استأجر أجيراً فليسم له أجرته » وعن أبي سعيد
« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استئجار الأجير حتى
يبين له أجره » .

أما النوع الثاني : فهو الذى يفرد نفسه لصاحب العمل ،
ويتقيد بالعمل فى بيته ، أو أرضه ، أو مصنعه ، أو تجارته أو نحو
ذلك .. وهم صنفان :

الأول : يقيم مع صاحب البيت فى بيته .

والآخر : ينفصل عن الإقامة معه ، كعمال دور الصناعات
والشركات ونحوها الآن .

أما أولئك الذين يقيمون مع رب المنزل فى بيته ، فقد سن
لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماً ما يمكن أن يتصوره دعاة
الإصلاح من قواعد الحرية ، والكرامة ، والكفالة ، إذ قال :
« إخوانكم خولكم » خدمكم « فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه
ما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ،
فإذا كلفتموهم فأعينوهم » .

ومن اللؤم والخسة أن يظن صاحب المال نفسه أكرم
وأفضل من العامل .. ومن الجهل والانحلال أن يشيع فى المجتمع
أن الخدمة فى أى صورة من صور الحلال مثقصة لقدر المرء .. !
ولسنا نذهب إلى ذلك ، اعتزازاً بمعنى الحرية وتقريراً لقاعدة
المساواة المطلقة بين الناس فحسب ، بل إن العقل نفسه يوجب
ذلك ، وهو الفيصل فى شئون الإنتاج والاقتصاد .. إننا لانستطيع
أن نتصور سدياً ما ، أو حجة يستند إليها هذا الأحمق فى ادعاء

الأفضلية أو الشعور بها !! ألا أنه صاحب مال ؟ . . . فمن قال إن المال في يد الرجل يكسبه شرفاً وخصوصية من خصائص الامتياز ؟ ومن قال إن هذا المال إذا زال عن صاحبه زالت عنه آدميته ، واعتبر متاعاً ساقطاً مهدر القيمة ؟

إذا جاز لهذا الجاهل أن يستطيل على العامل بأنه صاحب المال ، فلماذا لا يستطيل العامل عليه بأنه صاحب القوة والفن والملكة ؟ وماذا يساوى المال إذا تنحّت عنه القوة العاملة والملكة المدبرة ؟ لقد أكثر الاقتصاديون من المفاضلة بين المال والعمل وأثر كل منهما في الإنتاج ، فمن قائل بأنهما سيان ، وقائل بأن العمل أهم ، وثالث بأن المال أقوى . . . وعلى أى حكم من الأحكام الثلاثة فالعامل ليس كلا على صاحب المال ؛ فهو صاحب ملكة وموهبة وثروة معنوية تفوق ثروة المال عند من رأى ذلك من الاقتصاديين ، أو تساويه ؛ فإذا لم تسكن له السيادة على صاحب المال فمن الغباوة والحمق أن يعتبر خلقاً ذليلاً هيناً لا قدر له .

ومن المؤسف أن ينحدر المجتمع في تقديره للحقائق والمعاني ، وقيم الأشياء ، فيجارى هذا الحمق الذى يعتبر العادل فى المنزل أو المصنع فئة ليس لها فى المجتمع من المكانة والقدرة ما غيرها .. وتستطيع ربة المنزل — مثلاً — أن تسأل نفسها ماذا تساوى النفخة الكاذبة فى صدرها إذا تركتها الخادم وغادرت منزلها ؟

ألا تمد يدها إلى الأطباق والمكينة وأنفها راغم ؟
فإذا كانت عاقلة سألتها : أشعرت يا سيدتي حين امتدت
يدك إلى الأطباق والمكينة وطست الغسيل . ألك صرت مخلوقاً
لا إنسانية له ولا كرامة ولا اعتبار ؟

نقول هذا لنبدل على أن مجتمعنا تنقصه التربية الصحيحة :
تربية النفس ، وتربية العقل .. ولن يكون مجتمع ما كريماً مهذباً
إلا إذا كان فاضلاً في نفسه ، كاملاً في عقله ، يزن القيم ، وقيس
الأقدار بالنظر الصادق السليم ، لا بنظر المخلوق التافه الحقير الذي
ينتحل لنفسه امتيازاً من لا شيء .

ولقد أحس جهلة الشيوعيين انحراف ربات البيوت وأصحاب
الأعمال عن النظر الصادق إلى قيمة العامل في البيت أو المصنع ،
فيكان من قواعد نظامهم تحريم الخدمة الخاصة في المنازل ، وتحريم
ملكية المصانع ، حتى لا يقع إنسان في خدمة آخر .

ولا يسبقن إلى وهم أحد أن هذا حسن ، فليس من العبقرية
أن يستنكر الإنسان تطاول أحد على آخر ، فهو فطرة في النفس
بل فطرة في الحيوان . وليس من الاستكشاف الخطير أن يقال
إنه لا فرق بين إنسانية الخادم وإنسانية ربة البيت .

ذلك أمر مرجعه إلى الفطرة يحسه الحيوان كما قلنا دون أن يدعى
لنفسه عبقرية في الفكرة أو المبادئ . إنما العبقرية أن تظلم
الأوضاع وأساليب الرزق على ما يقضى الله ، وتقضى به قواعد

ال عمران السليمة . وأن تنصرف الجهود والعقريات إلى معالجة
أس الفساد ، ومنبع الطغيان والجهل وهو « النفس » . أنهم لو فعلوا
ذلك لأسدوا إلى جوهر الإنسانية خيراً كثيراً ، ولا هدوا إليها النور
الذى تمشى به إلى الرقى الحق ، والكمال المنشود .. إذ لم يكن العيب عندهم
أن الخادم كانت تعمل في البيت ، وإنما العيب أن ربة البيت
كانت شريرة قادرة خسيصة النفس لثيمة الطبع ، وكان صاحب
المصنع وصاحب رأس المال من هذا الطراز . فلو أن القائمين
على الإصلاح لهم بصائر وإدراك عميق لحقائق الحياة ، لاتجهوا
بإصلاحهم إلى علاج الإنسان نفسه ، ووضعوا له من سنن الرقى
ومناهج التهذيب ما يصير به خلقاً آخر ، ولكنهم عالجوا الجهل
بجهل مثله ، وواجهوا قصر النظر بقصر آخر من جانبهم . فتركوا
الشر السكامن في النفوس على حاله ورفعوا يد المرء عما يملك وسموا
ذلك إصلاحاً ملئوا به الدنيا صياحاً وجعجعة ، فكانوا كالذى
رأى معتموها يضرب الناس ويقذفهم بالحجارة أينما سار ، فعالج
أمره بربط يديه إحداهما إلى الأخرى .. ولو أنه ذهب به إلى
أحد المستشفيات لأهدى منه إلى المجتمع بعد قليل ، مواطناً
مهذباً فاضلاً ، علاوة على ما يتسم به هذا العمل من الرحمة والنبيل
وسمو العاطفة .

إن الخدمة في البيت أو الحقل أو المصنع ما برحت عملاً
شريعاً لا يغض من قدر صاحبه ما دام ينبغي أن يعف نفسه

ويكفها عن الحرام . والإنسان على هذا الاعتبار عنصر ضروري للإنتاج والعمران ؛ وخدمته منطق اجتماعي لا حول عنه في البيت أو المصنع أو غيرهما . ولا غنى عن ذلك أبداً ، فهو سنة الله ، لا سبيل إلى تغييرها . فكل إنسان صغيراً كان أم كبيراً داخل في خدمة الآخر ؛ وكل فئة تخدم أختها دون أن تشعر على نحو ما قرره الشاعر الأول .

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدّم والله سبحانه يقول : ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً . ورحمة ربك خير مما يجمعون ، فإدام الناس متفاوتين في الأمزجة والميول .. وقوى البدن وملسكاته .. ودرجات الذكاء ومذاهب الفكر .. ونوع الشخصية التي يحملها المرء ، فلن يستغنى أحد عن خدمة الآخر ؛ ولن تكون الخدمة في البيت حينئذ أقل شرفاً من الخدمة في أى مكان سواه . ولن يكون الجند في ميدان القتال أقل جدوى وأثراً من القائد العبقري القابع خلف الصفوف . بل لن يكون كناس القمامة في الشارع أقل فائدة للمجتمع من الطبيب .. وإن ما تواضع عليه الناس — جهلاً — أنه عمل هين لم يمنع صاحبه في القديم أو الحديث أن يضطلع يوماً ما بمهمات الأمور وجلائل الأعمال . وهام أولاء رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه ، يخرجون من أعمال الحداة والخياطة ، إلى أعمال الهداية والرسالة ؛ وينتقلون من رعاية الغنم إلى قيادة الشعوب والأمم .

وإنك بالتأمل القليل لا ترى في الأمر مثقال ذرة من عيب
أو نقص يلحق المرء إذ يشتغل ببيت من البيوت . بل إن حاجة
البيت إلى هذا الأجير قد تشدد وتعظم حتى يعتبر قبوله للعمل
نعمة وفضلا . ونحن لا نسوق الكلام على عواهنه . فهو نظر
الإسلام الصادق . وتقريره لقدر الخدمة وفق حاجات المجتمع
وهذا موسى عليه السلام — أجر نفسه ثمان سنين أو عشرآ
قضاها في بيت شعيب عليه السلام ، دون أن يرى في ذلك عيبآ
يلحقه . بل دون أن تقصر تلك الخدمة في ترشيحه لرسالة التحرير
الرائعة التي نازل فيها أكبر طاغية علا في الناس وادعى الربوبية فيهم .
ما كان في خدمة موسى من هوان ما دام يؤدي عملا شريفاً
يستحق عليه ما ينال من نفقة وغيرها . بل إن حاجة بيت شعيب
كانت أشد ما تكون إليه حين أسرع الشيخ الوقور فقال :
« إنى أريد أن أنسكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني
ثمانى حجج ، ويزيد ويقول في شعور المضطر : « فإن أتممت عشرآ
فمن عندك » . ولا شك أن منطق هذه الحاجة الملحة ، يقنعك
بشرف مكان الأجير في البيوت . بل إنه يقنعك أن خدمة موسى
لهذا البيت الشريف كانت من أجل النعم التي ساقها الله إلى أهله .
وتستطيع أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فهذا الأجير الذي يعاف
الجهلة مكانه لم يكن جهده أن يرعى غنم هذا البيت فحسب ، بل إن الله
أجرى لهم من المنفعة على يديه والعزة به ، ما نقلهم من حال الهوان

والضعف إلى المقام الذى لا يطاول فى مدين بأسرها . . ولا شك أنك تعرف أن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء . . . ثم قالتا فى انكسار : وأبونا شيخ كبير . . . لقد قالتا له : إن هذه هى حالها ، وعادتهما التى لزمتهما منذ أقعد الضعف أباهما عن السكدح والمنافسة ، ولا قدرة لهما على مدافعة هؤلاء الأقوياء من الرعاء ، فهما تصبران على تلك الحال من الهوان حتى ينصرف الجمع .

وأيسر هذا الهوان هو الانتظار وتأخير قضاء المصلحة ، أما ممره الذى لا تقبله النفوس إلا على ضيم وضيقة وضعف ، فهو أنهما لا تردان البئر إلا بعد أن تكون الدلاء قد استنفدت الرائق من جمامها ، وضربت فى جوفها حتى أثارت طينه وعكره ، فلا تجدان بها إلا ذلك العكر ، وإلا ذلك الماء الملوث الذى أريق بفعل الرعاء تحت أقدام الإبل وأفواه الغنم ، وأخذير تدعائهم إلى بئرهم حيث كان . . . وهوان تلك الحال ، لا يقدره إلا من خبر عيشة البادية ، ولذا كان من السكنايات التى عبر بها العربى عن عزته وذل غيره ، قول بعضهم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوآ

ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

ثار الغضب فى رأس الشاب الذى ادخرته العناية الإلهية لرسالة

التحرير ، وغلا الدم في عروقه ، ونهضت الهمة في إهابه العزيز ،
 فإذا به يدفع بذراعيه الفتيتين بين أولئك الرعاة الغلاظ ، فتتنحى
 لفتوته الجموع ، فما هو إلا أن يسقى للمرأتين ، وينتصف لضعفهما
 من جفوة الأنانيين ، ويزيل من قلبيهما كسرة الهم والذل ، ومن
 حلقيهما غصة الشجى المرير ؛ وكأنما لم تشرب غنمهما ، وإنما
 شربت كل منهما شربة ، لم تعهد لها طعاما في قلبها قبل اليوم . . . ثم
 تولى إلى الظل ليخاطب ربه « رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير »
 نعم فهذا نوع من الأجراء يدخل البيت لا ليؤدى عملا يؤجر
 عليه فحسب ، ولا يسد ثغرة ضاق عنها جهد مواليه فقط ، بل
 ليعزهم الله به من ذل ، ويرعاهم من ضيم ، وتلك غاية يجب أن
 يفهمها ويستشعرها كل من أجر نفسه في بيت من البيوت . . !
 . . هذا شأن الخدمة في المنازل ، وهذا نظر الإسلام إليه ،
 ويستطيع من ابتلوا بالنظر السقيم أن يعالجوا خطأهم على ضوئه ،
 ويستطيع أهل النظر العميق أن يقيسوا ما عندهم عليه ويرأسوا
 الإسلام إلى تقرير أوضح الحقائق ، وأصدق المبادئ ، وأسمى
 المثل منذ أربعة عشر قرناً ، يسوقها في هذا المثل القوى ، الجلى ،
 الواقعى ، الذى لا يكتفى فى إعلان كرامة الأجير بجعله كفؤاً لابنة
 سيد البيت ، بل يعلن أن ما يؤديه فى البيت من عمل يبلغ فى القيمة
 وسمو التقدير أن يكون مهرأ لابنة السيد . . . وأى سيد ؟ . . !
 أحد أنبياء الله المرسلين ! !

وقد يقول قائل : إن موسى كان حقاً أجيراً في بيت من البيوت ، ولكنه كان في بيت نبي لم يلق فيه من الهوان ما يلقاه سائر الخدم والأجراء في البيوت الأخرى . . . وكأنه بهذا لا يعترض علينا — من حيث لا يشعر — بل يقرر ما قررناه ، من أن العيب ليس أن يأجر الأجير نفسه لبيت من البيوت ، وإنما العلة في النظر الخسيس الذي يعبث بموازين القيم وأقدار الناس وما كانت مثل هذه الأمراض يوماً من الأيام بالحكم الذي ترضى حكومته ، بل هي الداء الذي ما أرسل المرسلون إلا لتنظيف النفوس منه ، وإبرائها من ذلته وعبوديته .

ولقد أعلن رسول الله في الحديث الذي رويناه آنفاً مبادئ ثلاثة : « إخوانكم خولكم » خدمكم . . . فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه بما يطعم وليلبسه بما يلبس . . . ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم .

ولا تنس هنا أننا نتكلم عن أجر الأجراء الذين يقيمون مع رب البيت في بيته ، فقد سن لهم الإسلام هذه المبادئ الثلاثة : أما الأول : فهو الأخوة . . . فالعامل أخو صاحب رأس المال والخدام أخو رب البيت . . . وأخص خصائص الأخاء ، المساواة التامة بين الطرفين أو بين الأخ وأخيه ، فلا فاضل ولا مفضل ولا كبير ولا صغير ، ولا عزيز ولا ذليل ، ولا غني ولا فقير .

والإخاء حين يفرض هذه المساواة، لا يكتفى بالتسوية بين النظير ونظيره، كما يكتفى بمقوم السلع بأن هذا يساوى ذلك... لا... إنها المساواة التي تجعل هذا من ذاك، وذاك من هذا، كلاهما بعض الآخر وجزء من طبيئته؛ وهل الإخاء إلا السر الذي يخلط الدماء ويشق الجميع من رحم واحدة، وينحدر بهم من الأصل الأعلى؟. فمن كان من أصحاب الأعمال أو البيوت، ومن كان من العمال والأجراء على غير هذا الوضع، فليعلم أنه رجس من عمل الشيطان، وأنه يحافى ما سن الله ورسوله، وينقض أصلاً فطرياً من الأصول التي بنيت الحياة عليها، أى ينقض الحياة نفسها، ويهدم صرحها وإن الراضى بهذا الرجس كالمشارك فيه، كلاهما بمنوء بغضب الله إلا أن يسعى لتغييره وإزالة آثاره.

ولا شك أن هذا الأصل مقرر أيضاً للعمال الذين تنفصل إقامتهم عن بيت صاحب العمل، ويشغلون بمنزل خاص، لأن الحديث الشريف لم يقيم فاصلاً بين هذا وذاك، إذا الإخاء هو الوصف الطبيعي للسر الذي يوحد بين الناس جميعاً، وما يجب تقريره هنا تدعيماً لقاعدة الإخاء والمساواة، أن الإسلام يجعل العبد الرقيق — وهو دون الخادم الحر في الاعتبار الاجتماعي — كقفاً للزواج من ابنة سيده!

والمبدأ الثاني: هو الذى نرى فيه الرسول كأنه يقصد أجراء المنازل، أى الأجراء الذين يساكنون صاحب العمل فى بيئته،

ويعملون في داخله أو خارجه ؛ وهو المبدأ الذى يقرر :
« فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس » .

ومعنى ذلك :

١ — أنه لا يقل أجر الأجير الذى ينقطع لصاحب رأس المال
عن كفايته من الطعام والثياب أما المسكن فهو يساكن صاحب
العمل فى بيته .

٢ — وأنه لا يقل مستوى كفاية الطعام والثياب من حيث
الجودة ، عن المستوى الذى يعيش فيه صاحب العمل وسائر أفراد
أسرته . ما دام العامل يعيش معهم فى بيت واحد . . أى أنه
لا يكون لصاحب البيت وأسرته طعام ولباس غير الطعام واللباس
الذى يأكل منه الأجير ويلبس . ولا نحب أن نستطرد هنا إلى
تلك الحسة والحقارة التى تسول لأدنياء النفوس من ربات البيوت
وأربابها أن يجعلوا للخادم طعاماً ولباساً أدنى مما يأكلون ويلبسون .

٣ — إن الحديث الشريف يقرر الحد الأدنى فقط . . .
أما ما فوق ذلك فلم يعرض له ، لأنه متروك للظروف وتقدير
الاعتبارات المختلفة . وبذلك يفتح الإسلام أمام الأجراء كل باب
لجلب الثراء وتحصيل المال كفاء ما يقدمون من عمل .

ولسنا فى هذا مباغين أو متعسفين . فالحد الأدنى هو الملحوظ
فى الحديث . أما الأعلى فلا ذكر له ولا ظل ولا راحة ؛ ويسندنا

في هذا أن موسى عليه السلام لم يأجر نفسه بكسوته وطعامه فقط بل كان هناك ما فوق ذلك ، هو زواجه من ابنة سيد البيت ؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة القصص فلما بلغ قوله تعالى : « إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشر آفن عندك » قال : « أجر نفسه والله ، على عفة فرجه ، وطعام بطنه » .

ولا شك إن امتداد الأفق أمام الأجير إلى هذا الحد وإلى ما بعده ؛ هو العدل ، وهو سنة العمران المنتج ؛ وسبيل الترقى وتطور أحوال الناس .

وقد طبق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكام تلك القاعدة على أنفسهم وخدمهم ورقيقهم أدق تطبيق وأوفاه . فهذا أبو ذر رضى الله عنه ما كان يشتري لنفسه ثوباً إلا ويشترى مثله لخدمته أو رقيقه ، من نفس النوع واللون وبنفس السعر حتى لا يقع في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت قصة طريفة تتضمن واقعة لأبي اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على تحريرهم لمواقع مرضاة الله واثباتهم بأمر نبيه . وهى واقعة خاصة بتسيير الدائن على مدينه إذا كان معسراً . وقد أوردها الإمام ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » والذي يلفت النظر في هذه القصة وهو محل شاهدنا - لا محل العبرة في القصة نفسها - أن الوليد قال : فخرجنا فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له . . وعلى أبي اليسر بردة ومعافرى . . وعلى غلامه بردة ومعافرى . . الخ . . وتاريخ الحقبة النبوية الزاهرة وما تلاها حافل بالكثير من أمثال هذا . وقد كنا قسمنا الأجراء الذين ينقطعون للعمل عند شخص معين أو شركة أو نحوها إلى فريقين : فريق يقيم مع صاحب العمل في بيت واحد . وآخر يستقل بمنزل خاص . . أما الفريق الأول فقد ذكرنا حكمه في تقدير أجره ؛ وأما الفريق الآخر فله نفس هذه الكفاية التي قررناها الحديث الشريف للفريق الأول . نعم له كفايته من :

١ - الطعام والكسوة . أى الأجر الذى يكفل الوفاء بكافة مطالب الطعام واللباس .

٢ - وليس هذا فحسب ، بل لابد أن يراعى فى الأجر ، أن يتسع لقيمة المسكن . . فإن الرسول عليه السلام سكت عن المسكن فى حديثه الشريف لأنه كان يتكلم عن أجير قد كفى مؤنة المسكن بإقامته مع صاحب العمل فى بيت واحد . . أما هنا فلسنا نعتسف أبداً حين نقرر على ضوء الإسلام وجوب الاتساع فى تقدير أجر العامل بحيث يشمل قيمة المسكن .

ولا يجوز أن تقل قيمة الأجر عن هذا ، فهو الحد الأدنى الذي لا يجوز تجاوزه إلى ما دونه ، وإلا عد استعباداً بالباطل وحكماً بتجويع نفس حرم الله قتلها إلا بالحق .
أما الحد الأعلى فقد سكوت عنه .

وأساس تقدير الحد الأدنى للأجور هو مراعاة مستوى المعيشة في البيئة وذلك مأخوذ من قوله عليه السلام « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يطعم ، وليلبسه ما يلبس »

والبيئة بالنسبة للأجير الذي يساكن رب المال هي البيت نفسه الذي يضم الإثنين ولما كان مستوى معيشة البيوت يتفاوت في بعضها عن بعض ، في القرية الواحدة أو المدينة الواحدة ، فإن أجراء هذه البيوت سيتفاوتون طبعا في مستويات المعيشة تبعا لمستوى البيت الذي يعيش فيه كل منهم وليس لصاحب بيت من البيوت أن يهبط بمعيشة الأجير عنده إلى مستوى بيت آخر أو إلى مستوى أجير في بيت آخر ، فإن بيئة كل أجير هي البيت الذي يعيش فيه مع صاحب المال ، ولا يجوز على — ما قرره الحديث الشريف — أن يكون له طعام دون طعام سائر أفراد هذا البيت ، أو كسوة دون كسوتهم فإنه منهم ، وهم منه ، بحكم الأخوة التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ومن أقوال العلماء أنه يصح أجرة العامل والمرضة بطعامهما وكسوتهما ،

وعند التمازج في صفة الطعام والكسوة يكون لها الحق في طعام وكسوة مثل طعام الزوجة وكسوتها .. فإذا كان الأجير لا يساكن صاحب البيت ، فإن الحسب لا يتغير ، أى أن أجره يتحدد أدناه بمراعاة مستوى المعيشة في البيئة والسكن الذى يتغير هنا هو حدود البيئة ومعناها ، فليست البيئة هنا هى بيت صاحب المال ، وليس أفرادها هم أسرته ، وإنما هى الفئة التى تحترف مثل حرفته ، وأفرادها هم أترابه الذين تنتظمهم وإياه حالة عقلية ونفسية واحدة .. فلا يجوز أن يقل الحد الأدنى لأجره عن القدر الذى يفي بنفقات (١) المسكن (٢) والملبس (٣) والمطعم فى المستوى المقرر عرفاً لأهل مهنته . . . فإذا نزل عن ذلك ، فهو استغلال لاحتياج العامل وارغام له بقهو الضرورة على أن يقبل وضعاً غير وضعه ، وشيئاً أقل من حقه . . فإذا شكك العامل أو تذر ، فليس هو الذى يشور على الأوضاع ، ويحضر على كراهية الطبقات ، وإنما الذى ثار على العرف ، وغير الأوضاع المتميزة بطبيعتها فى البيئة ، هو ذلك المستغل الذى أذاق القلوب مالم تذوقه ، وأرغم النفوس على أن تغير ما ألفته . . . فإن تغيير مستوى المعيشة لا يتم «أتوماتيكياً» كما يتم أى عمل آلى ، وإنما لا بد فيه من معاناة نفسية وعقلية ، وتحول عاطفي مرير . . .

ومهما يكن من شئ فإنه لا يحل لأحد أن يستغل ضرورة العامل وحاجته إلى القوت ليضطره إلى قبول ما يهبط به عن مستوى أهل مهنته ، فإنه عبث بما شرع الله ورسوله .

هذا ومستوى فئات العمال في المدينة ، غير مستوى معيشتهم في القرية ، فلا يجوز أن يستغل هذا التفاوت للعبث بالحقوق المقررة شرعاً وعرفاً .

ونكرر هنا ما قلناه : أن ذلك كله يدور حول الحد الأدنى الذي لا يجوز أن يهبط الأجر إلى مادونه ، أما الحد الأعلى ، فقد تركه المشرع لعوامل العرض والطلب الطبيعية ، وتقدير قيمة الإنتاج تقديرًا عادلاً خالياً من كل المؤثرات الظالمة .

وبعد فهل عرفنا تقدير الحد الأدنى للأجر ؟

لقد قرر له الإسلام ، أن لا يقل عما يكفي نفقة : المسكن . . والمطعم . . والملبس ، فهل انتهى به الإسلام إلى هذا الحد فحسب ؟

أن ديناً يقول عنه منزله سبحانه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، إن ديناً يصفه منزله بأنه النعمة التامة على عباده ، جدير أن لا يقف بالآجر الأدنى عند هذا الحد ، وإلا فكيف يتزوج ؟ ومن أين يتزوج ؟

نعم يا أخي ، لقد قرر الإسلام حقاً لغير المتزوج أن يتزوج ، مادام أجره في حدود كفايته من المسكن والمطعم والملبس لا يتسع لأن يتخذ لنفسه زوجاً .

ولسنا نعتمد في تقرير ذلك على ما كان بين موسى وشعيب

عليهما الصلاة والسلام لحسب ، بل قد روى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « من كان لنا عاملاً فليكتب سب زوجة ؛ فإن لم يكن له خادم فليكتب سب خادماً ؛ فإن لم يكن له مسكن فليستخذ مسكناً . . . وذلك أمر فطرى بدهى محض ، فالزواج حاجة كل إنسان لا غنى له عنها .

حقاً إن الرسول يتكلم فى هذا الحديث عن حقوق مستخدمى الدولة ... ولكن أتظن أنه عليه السلام يرمى إلى تخصيص موظفى الحكومة بامتياز مادون سواهم من العمال ؟ ... أتظن ذلك دار بذهنه أو طاف بخاطره حين قرر هذا الكلام ؟ ... أنه رسول الجميع ، ورحمة الله للناس كافة ، وهو الراعى المسئول عن أتباعه جميعاً ... وحين يقرر هذه الحقوق ، إنما يقرر احتياجات أولية يستوى فى الحاجة إليها كل أجير لدى الحكومة أو لدى الأفراد والشركات ؛ ولا شك أن ما تلزم به الحكومة الإسلامية بمثلة فى سيد المشرعين — لعالمها — إنما هو التزام يسرى حكمه قطعاً على كل أجير انقطع للعمل ، عند فرد أو شركة أو جماعة ، بحكم المائلة بين ظروفه وظروف من انقطع لخدمة الحكومة ... وهذا السريان يسوغه كما قلنا أن الرسول رسول الجميع ، وأنه لا يشرع بهذا الكلام إمتيازات ، وإنما احتياجات فطرية أولية لا غنى عنها ... أو على الأقل هو حكم القياس الذى تتسع به دائرة الحكم حتى

تشمل الشيء ونظيره ، وتظل برحمته جميع النظراء المتباينين في ظروف واحدة ، وحالات واحدة .

ولعل ذهن القارئ التفت في الحديث الشريف إلى ضرورة اتخاذ الخادم ، .. أى أن الدولة ملزمة أن تجعل أجرة الموظف عندها بحيث تنسج — فيما عدا المطعم والملبس — للسكن ، ونفقات اتخاذ زوجة ، وأجرة الخادم .. وهى توسعة عجيبة ، لا ترى لها مثيلا فيما يدعو إليه بعضهم من مذاهب العدالة الاجتماعية .

وهذا الحديث عن أبى داود جاء مثله عن الإمام أحمد بن حنبل ، بسند آخر ، وسياق آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى لنا عملا (١) ، وليس له منزل فليتخذ منزلا (٢) أو ليست له زوجة ، فليزوج .. (٣) أو ليس له خادم فليتخذ خادما .. (٤) أو ليس له دابة فليتخذ دابة . . . »

فهذان الإمامان الجليلان يرويان لنا بأكثر من سند واحد عن رسول الله ، ما يجعل الناس — لشدة ما نزل بهم من التضييق والتقتير — فى دهش من سماحة الإسلام وعدالته السابغة .

إننى أشعر أن هذه الأحاديث الشريفة تغني عن دعوة جماهير الموظفين والعمال إلى الإسلام ، فإنها قد تولت الدعوة إليه بما لا مجال معه لقائل . . . وأخير آ فلعلمك التفت إلى قوله عليه السلام « أو ليس له دابة فليتخذ دابة » ، فهو تقرير قاعدة التزام الدولة

بنفقات انتقال موظفيها ، متى كانت المسافة من المسكن إلى مقر العمل موجبة لذلك . . .

على أننى أرى نص الحديث مطلقا غير مقيد ، فاتخاذ الدابة واستخدامها غير مشروط فى الحديث الشريف بشرط البعد أو القرب ، فكأن المشرع الحكيم رأى إن الأجير الذى فرغ نفسه للحكومة ، وقدر له نفقات الحد الأدنى لمستوى المعيشة ، لا يستطيع أن يدبر نفقات انتقاله لزياراته الخاصة أو قضاء مصالحه ، فيسره ذلك بتقرير الدابة ، أو بدل الركوب والانتقال !! ونكرر ما ذكرناه سابقا أن هذه الأحكام إنما تتعلق بتقرير الحد الأدنى للعامل . . . وأن موظفى غير الحكومة فيها كموظفى الحكومة سواء .

ونحب أن ننبه إلى أن تقدير هذا الأجر الأدنى مراعى فيه كفاية فرد واحد هو العامل الذى يعمل فقط .. فإذا تقدم لشركة أربعة عمال — مثلا — أحدهم عزب والثانى متزوج ، والثالث له ولدان ، والرابع له خمسة أولاد ، واتفقت معهم على الحد الأدنى ، فإن هذا الحد يتقرر بقدر واحد بالنسبة للجميع ، دون مراعاة لما على ذوى الأعباء من أعباء ، والحكومة هى المكلفة شرعا بنفقات من قصر الحد الأدنى عن كفايتهم على ماسياتى إن شاء الله فى رسالة التكافل الاجتماعى أما إذا حصل الاتفاق على أجور مغنية ، فقد كفيت الدولة دفع الذهب والفضة .

وبعد فأين نحن الآن ؟ لقد أوردنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قرر فيه قاعدة الآخام بين الخادم والمخدوم بقوله : « إخوانكم خولكم ، خدمكم » . . وقاعدة الآجور التى قرر فيها عليه السلام مراعاة مستوى البيئة بقوله : « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس » . . . وبقي : المبدأ الثالث ، وهو خاص بتقرير مراعاة التيسير فى العمل على العامل ، وعدم إرهاقه بما فوق الطاقة وذلك هو قوله عليه السلام : « ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم » .

وذلك هو منطق العدالة وحكم الإنصاف . . والإسلام بتقرير هذا المبدأ ، لا يستجدى صاحب العمل أن يرحم العامل ، ولا يسأله الشفقة به ، فالرحمة ما برحت مبدأ تطوع المرء بما لا يلزمه به العدل ، بل إن حقه الطبعى — يوصفه كائناً حياً — ألا يحمل من العمل إلا وسعه وطاقته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ؛ فليس الإنسان متاعاً أو آلة تدار بغير حساب ؛ فإذا وجد من الأدميين الغلاظ من تسول له أطاعه القذرة أن يسخر الناس بقرشه تسخير الآلة التى لاتحس ، ويستغل حاجتهم إلى القوت فى إذلالهم واستقطار طاقة الحياة من أبدانهم فهو اللص الذى يجب أن تقطع يده ، بل هو السفاك الذى يقتل الناس ببطء ، ويسفك دماءهم قطرة قطرة ، لادفعة واحدة . . فليس الأمر أمر رحمة

وإنما تقرير حق طبعي ، ومبدأ عادل ، وهو المبدأ الذي ينادي به العمال الآن في كل مكان ، ويتلخص في العرف الحديث في تحديد ساعات العمل .

ويزيد الإسلام على ذلك مبدأ طريفاً : أنه لا يجوز هذه الأعمال المرهقة ، إلا بشرط تعاون صاحب العمل مع عامله عليها : « فإذا كلفتموهم فأعينوهم » ، فإذا لم يفعل فلا شيء على العامل ، ولعله كذلك أراد أن يذيق صاحب العمل ما يلقاه العامل من مشقة وجهد ، فيتيق الله فيه ، ويوفر له من الوقت ما يرفقه به عن نفسه .

ولك أن ترى في هذه الإعانة « فأعينوهم » أنها إعانة بالمسكافاة والتشجيع ، والجزاء الذي تطيب به النفس ؛ وهو جزاء يجب أن يكون تقديره منفصلاً عما يتقاضاه العامل عن عمله العادي ، وهو سنة طيبة معمول بها في بعض دوائر الأعمال ، إذ يأخذ العمال أجوراً إضافية على ما يؤدونه خارج أوقات العمل المقررة .

هذا ما وسعنا أن نستخرجه من هذا الحديث الشريف والله نسأل أن يوفق الجميع إلى العمل به والانتفاع بما قرره الشريعة السمحة .

آفات العمل

العمل هو الوسيلة الطبيعية الاولى لكسب الرزق ، والأجر ،
وحيازة ثروات هذه الأرض .

وليس هناك من عمل بلا ثمر ، أو بلا أجر ، وتلك سنة
الحياة ، وطبيعة العمران ، وسبيل رضا الناس وطمانيتهم وإقبالهم
على شأنهم .

فإذا تدخلت عوامل الظلم والبغى الحرمان أحد ثمره عمله ،
أو أجر عمله ، فتلک هي الآفة التي تفسد دولا ب العمل ؛ وتعارض
سنة الحياة . . وهل دولا ب العمل إلا العامل ؟

إنها تسطو على همته فتوهنها فيغدو هيكلًا مفرغًا من عوامل
الحفز والأنبعاث .

وتسطو على نفسه فتورثها أول الأمر لها من غيظ ، وشواظا
من نار . . فإذا أعياه أن يجد النصفة ، انطوى على الحقد والضعينة
والنقمة . . . فإذا امتد به الأمد ، وزادت عوامل الجور عتوا
وسلطانا فقد الرجا في النصفة والعدالة ومد عنق الذل للواقع
البغيض ، يهضم بالاستسلام شيئاً من لهب جوانحه ... ولا نعرض
لذكر ما يلقاه العامل حينئذ من ضيق العيش وسوء التغذية
والتعرض للهرض والعري وسائر آفات الحرمان ... !

خصومة الإسلام لمن يستبدونه بالعامل :
ذلك هو ما نعتيه بأفة العمل ولذا جاء الإسلام يقول : واعطوا الأجير
حقه قبل أن يحف عرقه ، فكان بعض الصحابة يذهب به الورع
إلى التطبيق الحرفي لمنطوق الحديث الشريف فيرجو الأجير
ألا يبادر بمسح عرقه حتى يؤدي إليه أجره .
وكان عليه السلام يعلم أثر تلك الآفة في العمران والمجتمع
ونفس الأجير ... وكان يعلم كذلك أن في بعض الناس ضمائر
ممتة تسول لهم أن يستحلوا أجر هذا الضعيف المسكين كله أو بعضه
فأعلن عليهم خصومة عنيفة تفلق الصخر وتزلزل الجبال ؛ فقال
عليه السلام : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه
خصمته : (١) رجل أعطى بي ثم غدر ... (٢) ورجل باع
حرا وأكل ثمنه ... ٣ — ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم
يوفه أجره » .

استعباد الأحرار :

والرجل الثالث في هذا الحديث هو موضع الشاهد ، فما خبر
ذلك الذي باع حرا وأكل ثمنه ؟

كان من عادات صعاليك العرب وشذاذهم أن يخطفوا الأحرار
صغارا أو كبارا ثم يبيعونهم ويستحلون ثمنهم ، ولكن الفقهاء رأوا
أن الوقوف عند هذا الحد في فهم الحديث يضيق دائرته الواسعة
فإذا كان الاستعباد أن يشتري المرء رجلا حرا كان أو عبدا ، فلب

الاستعباد أن تضع يدك القاهرة على إنسان فتستغله وتسخره في حاجتك بدون أجر . ولقد كان فرعون يعبد بني إسرائيل لبأسه الشديد فيسخرهم في حاجته تسخير العبيد دون أن يدفع لهم أى أجر علاوة على ما كان ينزل بهم من التنكيل يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم فهل كان فرعون اشترى هؤلاء بماله ؟ لقد سمى القرآن ذلك استعبادا فيما دار بين موسى وفرعون من حوار إذ قال له : وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل .

ولقد قلنا في أول مبحث تقرير الأجور : إنه لا يوجد عامل لا أجر له على عمله إلا العبد فإن المفروض أنه في كفالة سيده ، وما اشتراه سيده بماله إلا ليسعى له فيما يريد من عمل ؛ وقد توسع العلماء فاعتبروا كل حالة تؤهل بصاحبها إلى أن يعمل ويستولى غيره على ثمرة عمله دون أن يعطيه أجره استعبادا . . .

واعتبروا من قهر إنسانا حتى سامه هو ان هذا المصير داخلا في حكم قوله عليه السلام « ورجل باع حرا وأكل ثمنه » قال الخطابي « من اعتباد الحر أن تستخدمه كرها . . . بل إن الإمام الشوكاني يذهب إلى الحكم على من يتعبد الأحرار باستخدامهم كرها بأن عليه وزر من باع حرا وأكل ثمنه ووزر من استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره إذ قال في تفسير قوله عليه السلام « ولم يوفه أجره » : « هو في معنى من باع حرا وأكل

منه ؛ لأنه استوفى منفعته بغير عوض فكأنه أكلها ولأنه استخدمه بغير أجره فكأنه استعبده .

هذه هي ثورة الإسلام على مستعبدى الناس بغير حق وآكلى أجورهم بالباطل وهي ثورة تحمل في أحد وجهيها روح العطف والغيرة على العامل والحساسية الشديدة بسوء ما يقع عليه من ظلم وتحمل في وجهيها الآخر تلك الخصومة العنيفة التي يعلنها الرسول عليه السلام في وجوه أولئك الخاسرين ؛ قال ابن الجوزي : « الحر عبد الله .. فمن جنى عليه فخصمه سيده » .

عمر يضع قدمه على ضرور الظلمة :

وقد تقول : ما قيمة هذه الخصومة إذا كان موعدها يوم القيامة ؟ . وما أثرها في الدنيا إذا كان من يستمع لها بليد الإحساس خسيس الطبع ؟

والجواب ماجرى عليه عمر وجعله سنة متبعة قولاً وعملاً :
ولست أدع أحدا يظلم أحداً أو يعتدى عليه حتى أضع خده
على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق » .

وكلنا يعرف نبأ ذلك الرأس المالى الوقح الذى جاء يشكو عماله إلى عمر لأنهم سرقوا بعض ماله فلما علم أمير المؤمنين أنهم فعلوا ذلك لأنهم لا يستوفون كفايتهم من الأجور صاح في وجهه « أيها اللص إذا عاد هؤلاء إلى السرقة قطعت يدك أنت » .

فاستخلص الأجور - إذا - ليس موكولا إلى ضماير هؤلاء الموتى فقط ؛ ولا مؤجلا إلى المحاكمة الكبرى يوم القيامة فحسب ، بل منوطا قبل ذلك بعدالة الحاكم الذى يرى الحق فى الدولة هو كل شيء : « إلا أن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ؛ وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه » .

الفقر... من نصيب العمل - والثروة... من نصيب البطالة :

ولكن من الأوضاع المعكوسة عندنا أن أهل العمل الذين يدور بسواعدهم دولاب الحياة الاقتصادية فقراء مضطهدون ... وأهل الكسل الذين لا يستفيد منهم المجتمع غير الخمر والقمار والرقص والخطرة على عباد الله أغنياء ولا يضطهدهم أحد ، بل هم الذين يضطهدون غيرهم ... والمعروف أن الثروة بنت العمل وأكثر الناس عملا أكثرهم ثروة ، ومن لا عمل له فلا نصيب له من شيء .. وهذا هو المنطق السليم وهو الوضع الصحيح للحياة المنتجة والله سبحانه يقول (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) فامشوا والسعى مقدمة للرزق والأكل ... ومن جد وجد ومن سعى ومشى أكل ومن لم يمش فكيف يأكل ، ومن أين يأكل ؟ فإذا رأيت بعد هذا عاملا يعمل ثم هو لا يجد ما يأكله فأنت بإزاء حالة شاذة ، وإذا وجدت رجلا لا يمنح الحياة من نفسه عملا ما ثم هو مع ذلك يحوز الثروات ، سرت الشكوك فى نفسك وتساءل عقلك من أين له هذا ؟

فنجن إذا بإزاء حالة خطيرة صارخة ، لا يستقر عليها أمن
ولا يزدهر بهاعمران . فهناك مظلوم غصب حقه ، وهناك ظالم أخذ
ماليس له بحق .. ولو أن الظلم يقع على المظلوم مرة واحدة لكان
من اليسير علاج عواقبه السيئة ، ولكن الظلم هنا سنة متبعة
وأسلوب رتيب يتكرر كل يوم فيكلاً جَد المسكين واجتهد امتدت
الأيدي الآثمة واستولت على ثمار عمله كأنما جريمته أنه يعمل ..
فإذا تساءلت كيف تم هذا ؟ قيل لك العلم عند ذوى الجاه والنفوذ
الذين تسترت وراءهم شركات الاستغلال والاحتكار ، والعلم كذلك
عند كبار الملاك والمزارعين الذين تستروا خلف عقود الإيجار
البيضاء أو السوداء .

فالأولون يسخرون نفوذهم لإذلال العامل وكنم أنفاسه كلما
طالب بتحسين حاله ؛ وإنك لترى البوليس يطارد جماعات العمال
أو يحاصر أنديتهم كأنهم ممن يدبرون الجرائم أو يتآمرون على أمن
الدولة ولو أنصف المسئولون لأنصفوا هؤلاء المساكين بل لقبضوا
على من غصبوهم حقهم وزجوا بهم في أعماق السجون .

أما كبار المزارعين فهم يجمعون المستأجرين في مبدأ كل
عام ويعرضون على كل منهم عقد إيجار أبيض فيختمه بخاتمه أو
يضم بأصبعه أو يمضيه بخطه الضعيف المرتبك ، ثم ينصرف إلى
حقله فيجد ويجتهد ويسهر بالليل ويعمل بالنهار ، لا برد يمنعه ولا مطر
يقعده ولا حر يثنيه عن غايته فإذا جاء آخر العام وجد نفسه قد

تعهد في عقد الإيجار الأسود بما لم ينزل الله به من سلطان ووجد نفسه عاجزاً عن سداد التعهدات التي وضعها السيد المالك من تلقاء نفسه على حسب ما يرضى مطامعه وشهواته وإذا بالخبراء يحجزون المحصول ولا يستولى المسكين منه إلا على ما دون الكفاف كأنما كان يضرب بفأسه في صخر ، أو يضع بذوره في رمل ، بل إنه لو كان كذلك لرق له الصخر وإن من الحجارة لما يشقق منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ... فإذا جاز السكوت على هذا الظلم الفادح الصارخ أظن يا أخى العمران يزدهر والاقتصاد ينتعش بمثل هذا ؟ إن الله لم يخلق الأرض ليجعل من أهلها قطاع طريق وإنما أرادهم عماراً لها (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) فكل ما خالف أصول العمران إنما هو معارضة لأمر الله ومحاربة لسنن الصلاح والإصلاح ومن صبر على ذلك باختياره فهو كالمشارك فيه ومن جاهد لإزالته بالتي هي أحسن فهو من خير المجاهدين في سبيل الله وذلك إن شاء الله من أخص أهدافنا التي نحاول إدراكها .

وسبيلنا إلى ذلك هو سبيل كل إصلاح مشروع فالصخب والعريضة ليسا من قوانين العقل ، وإثارة المشاعر وتحريك الجماهير إلى الهياج جريمة يجنيها السفهاء على الظالم والمظلوم جميعاً ، فالظالم والمظلوم في حاجة إلى العلاج النافع والدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن ، ولا نفع إلا أن نسمى الأشياء بمسمياتها ونبرز الواقع

عاريًا من كل طلاء يستر عيبه أو غطاء يموه على الناس حقيقته وكفى بذلك تنبيهها للحكومة . . . وردعا للذين لا يشجعون من السحت . . . وأنارة لأذهان الناس بالوعى الذى يطلب حقه ولا يعتدى على احد

سُرفتنا .. أو أسواق النخاسة :

فهذه أ كثر الشركات التى تعمل فى بلادنا — وطنية أو أجنبية — تعتمد فى « خاماتها » أى مواد انتاجها الأولية ، على ما تغله الأرض من حاصلات زراعية أو حيوانية أو معدنية . . . أى أنها تشتري « خاماتها » غالبا من الأسواق المحلية بأرخص الأثمان . وما لا جدال فيه أن الأيدى العاملة فى مصر أرخص منها فى أوروبا أو على الأقل فى بلاد كإنجلترا وفرنسا ونحوهما . وما لا جدال فيه كذلك أن ما تدفعه هذه الشركات للحكومة من ضرائب أقل كثيرا مما تدفعه الشركات فى أوروبا . وكان المنطق يقضى ببناء على ذلك كله أن تكون أسعار منتجاتها أقل بكثير جدا من أسعار ما يرد إلينا من الخارج . وإنه ليأخذك العجب حين تقارن بين سعر متر « البفئة » المحلية و « البفئة » الانجليزية ، مثلا فتجد السعيرين متساويين أو متقاربين تقاربا يكاد يمحو الفرق بينهما . فالشركة الانجليزية التى اشترت القطن من أسواق مصر

وأنفقت عليه رسوما للجارك في التصدير وأجورا للنقل في البحر ،
ثم أنفقت عليه مثل ذلك في إعادته إلينا مصنوعا بعد أن دفعت
من الضرائب في بلادها ما دفعت وأنفقت في أجور العمال الباهظة
ما أنفقت تبسيع لنا إنتاجها بسعر يماثل أو يزيد قليلا جدا عما
صنع محليا بأقل التكاليف . . . فهل لذلك من تفسير ؟ . . وهل
يعقل أن يباع إنتاج العامل الذي يتقاضى أجرأ يوميا ، يتراوح بين
١٥ قرشا ، ٤٠ قرشا أو ٥٠ بثمان يماثل أو يقارب إنتاج الذي
يتقاضى يوميا جنينين أو ثلاثة ؟

نقول هذا لنشير إلى الأرباح الهائلة الضخمة التي تعود على
أصحاب رموس الأموال في هذه الشركات ، ونبين أنه لا عذر لهم في
موقف الشح والتعنت الذي يواجهون به العمال كلما طالبوا بأجر
ينفس عن صدورهم شيئا من إنقال المعيشة المرهقة .

ولسنا بصدد الكلام عن تصوير عيشة الهوان والحرمان
والضنك التي يحياها العامل هو وأسرته بمرتبه الضئيل الهزيل .

ولسكننا نريد أن نذكر أن هذه الشركات لا تتكفي بموقف
الشح والبكزازة الحفيرة ، بل تذهب إلى تحصين نفسها أو
تحصين كراتها وشحها بمختلف الوسائل ضد مطالب العمال . . . بل
إنها تذهب إلى ما هو أكثر من ذلك ، إلى تطويق العمال أنفسهم
بأساليب بلغت الغاية في القسوة وخسة النفس ولؤم الطبع .

فهى تقيم من هؤلاء المساكين جواسيس وعيوننا على سائر
إخوانهم ينقلون إليها ما يدور من همس وما يجر به من شكوى
والويل لمن يعرف أنه زعيم أو أنه أشد جهرا بما يعتلج في صدره
من ألم إن مصيره لن يكون أقل من الفصل والطرْد، وهو مصير
مستساغ إذا قورن بمصير من لفقت لهم التهم وزج بهم في أعماق
السيجون :

إن ما يجرى داخل أسوار هذه الشركات الضخمة من أساليب
الاذلال لشيء تقشعر منه الأبدان فأنصاف الآلهة هناك لا تعرف
لغاديدهم غير الانتفاخ، وأنوفهم غير الغطرسة، وعيونهم غير النظر
الشرر، ووجوههم غير التجهم، وأفواههم غير قلة الادب وألفاظ
السفلة، وقلوبهم غير التحجر وبشاعة القسوة ... وعلى العامل إذا
أراد أن يعيش أن يسكن ويذل ويصبر على ما يرى ويسمع وأن
يرضى بعبادة ذلك الصنف البغيض من حثالة البشر ... فإذا لم
يرض بهذا الجو المكتوم المظلوم فإن إشارة واحدة من أصبع
أحد الآلهة تلقيه كما يلقي المتاع الخلق في الشارع حيث جحيم الحرمان
والضيعة أذل وأنكى :

ولقد حدثت عن زبانية شداد غلاظ يختارهم الآلهة للحراسة
وما اختاروهم إلا ليكونوا سدنة لمحاريب الظلم والعبادة الباذلة ...
وإن السادن من هؤلاء ليشى مزودا بعضا غليظة أو كراباج مفزع
مدلا بيبأسه كأنما يتحدى الغادى والرائح من العمال المساكين؟؟ فهل

فهل تظن في هؤلاء المساكين من تحدثه نفسه بقبول هذا التحدى .. هل تظن أن فيهم ذلك المجنون الذى يلقى بالبقية الباقية من جسمه الضامر الطاوى بين أيدي هؤلاء الجلادين الشرسين الغلاظ ؟ .

وفى كثير من هذه الشركات أقسام كيميائية ينبعث منها أبخرة ، وغازات ، وذرات ، تنفذ إلى رئة العامل ؛ وشركات العالم كله ، العالم المتحضر ، تبادر بمواجهة هذه الحالة بتقديم غذاء خاص يصفه أطباؤها ، فيقاوم مكروب السل أو أى مكروب يتكون فى داخل الرئة . وهذا الغذاء يقدم على نفقة الشركة ، كما يقدم الزيت للآلة .. ولكن شركاتنا العتيقة — حيث القلوب قدت من صخر — لا تلقى بالا لهذا المعنى الإنسانى ، وتترك المسكين بلا حصانة ، يمشى ويبدأ إلى الداء المحتوم ، بإكراه اللقمة ، وضغط الرغيف ، حتى إذا تمكنت منه العلة ، وجد نفسه ملقى به فى الشارع

ومن الفجور ما حدثنى به بعضهم من أن الشركة التى يعمل بها ، دعت كثيرًا من الجرائد والمجلات أن توفد مندوبين عنها قال وحدد للزيارة موعد ، ولم يكن للشركة من هم قبل حلول الموعد إلا تدريب العمال على الرياء والنفاق وتمثيل مظاهر الرحمة التى يعاملون بها ... أعدت الشركة أو اصطنعت موائد أطباق وملاعق وأشواك وأكواب ... وأخذت تدرهم على

الجلوس إلى المائدة وكيفية مسك السكين والشوكة ... وأعدت
عنبراً به عدة أسرة واختارت فريقاً منهم لتمثيل دور المرضى ...
فهذا ثنيت ذراعها وربطت مشدودة إلى عنقه ، وذلك لفث حول
رأسه ووجهه الضمادات واللفائف ... أما هذا الثالث ففي دور
النقاهاة يستمتع بالغذاء الدسم والفاكهة المتخيرة ، أما هذا الرابع فله
شأن آخر وهكذا ... قال المسكين وخرجت الصحف والمجلات
عقب يوم الزيارة حافلة بأنباء البر وتفاصيل التعميم الذي نسبج
فيه وتمجيد المعاملة التي نلقاها ، وزينت صدورنا وكثيراً من صفحاتها
بصور الموائد والأطباق الحافلة باللحم والخضر والأرز والفاكهة
والعمال مقبلون عليها بشغف ونهم ، وظهرت صور لضمائد ليس
تحتها جروح ، ولمرضى ليس بهم من أثر لمرض ... وهذا نوع من
التطويق يسد الباب في وجوههم إذا شكوا للصحافة أو الجمهور
أو الحكومة .

وتصدر الحكومة القانون عقب القانون لمصلحة العمال
ولسكن لشركاتنا المجيدة بأزاء كل قانون آفة تبطل أثره ومخرج
تخرج به من تبعاته ... فإذا كان مضي المدة يكسب العامل
امتيازاً ما قبل الشركة ، فإذا يلجئها هي إلى إبقائه حتى يبلغ هذا
الأجل ؟ ولماذا لا تنتحل الأعداء لطرده والاستغناء عنه ... ؟
إنها لا تبقى إلا القليل من هؤلاء القدامى ، على أن يكونوا

عن برهنوا طول خدمتهم ، أنهم خرس لا يتكلمون ، وصم
لا يسمعون ، وعمى لا يبصرون ، وموق لا يحسون .. أما أولئك
الآخرون .. فيعرفون مصيرهم مقدماً !!

وهكذا تروض الشركة عمالها على الصمت والعمى ، أى على الذل
الذى يهدر الإنسانية ، ويجعل صاحبه شيئاً لا همة به كالثوب
الخلق .

وما تعبت به بعض الشركات ، أنها تظهر فى لبوس الرحمة
ومسوح الورع ، وتقبل شفاعة الشافعين فى بعض المطرودين بعد
أن يكونوا قضوا شهوراً فى أكناف الفاقة والجوع والتضور ..
ولكن على أنهم عمال مستجدون لا سابقة لهم بالشركة ولا حق
لهم فى امتياز ما ، ويعينها على ذلك أن هناك فاصلاً زمنياً يفصل
بين مدق الخدمة ، وذلك من أحط أساليب القسوة ، وأخس
طباع اللؤم .

وإذا صدر قانون النقابات ، فأهلاً به ومرحباً ، وهل تضيق
به الشركة العتيدة ، بعد أن أصبح عمالها فى يدها ألين من العجين
الرخو ؟

.. ولقد حدثت وما أكثر ما حدثت — أن الشركة هى التى
تفضل على العمال باختيار ممثلهم ، أى باختيار أعضاء مجلس الإدارة
الذى سيرعى حقوق النقابة ويكافح من دونها .. يكافح من ؟ ..
يكافح الشركة .. نعم تختار الشركة أعضاء مجلس النقابة الذى

سيبتولى مكافحتها ، وتصدر الأوامر بوجوب نجاح هؤلاء المرشحين ويحضر مندوبون من قبل الشركة ، لا حق لهم في مشاهدة عملية الانتخاب ، ولكن من يجرؤ أن يحاسبهم أو يخرجهم ، وهم ما حضروا إلا ليحاسبوا الذين لا ينتخبون مرشحي الإدارة ، أو لا يصوتون جهرة على مسمع منهم

ولعل بما أُملي لهذه الشركات في إذلال العمال ، وممكن لها من رقابهم أن في مجالس إدارتها أعضاء لا كفاية لهم ، ولا دراية بفن من الفنون التي تقوم عليها الشركات

أعضاء في مجلس الإدارة ولكنهم لا يحضرون ، فإذا حضروا لا يتكلمون ، فإذا تكلموا فبشيء سخيف مضحك مخز إذا لم يصلح لظرد صاحبه ، فإن يصلح بحال من الأحوال لأن يأخذ عليه قرشاً واحداً . . ولكن مع ذلك يتقاضى عنه ألوف الجنيهات . .

إنه صهر رئيس الوزراء ، أو قريبه ، أو صديق الوزير أو تابعه الأمين . . أو هو موصول الأسباب بواحد من أبواب الجاه والنفوذ والسلطان

ومن الظواهر التي لها معناها أن الشركة لا تستكشف عبقرية هؤلاء العباقرة إلا على أثر بزوغ نجمه في عالم السياسة والإدارة والجاه المرموق ، ولقد أحصى بعضهم منذ سنتين لرئيس وزارة سابق ما يزيد على ثلاثين شركة أو خمسين متشركة كلها بعضويته . . وتتساءل أنت ٥٠ شركة ؟ أيمن أن يحضر جميع جلساتها ، ويدرس

المشاكل التي يعرض لها المجلس بالبحث؟ .. وهذه المجالس لا تعقد جلساتها للتسليمية والترويج ، لا تعقدّها إلا لدراسة عويص المسائل ، ومعقد المشاكل ، فهل في عبقرية هذا الرئيس ما يتسع لهذه الدراسات ؟ وإذا كان ذلك — عادة — فوق الطاقة فهل هناك علاقة بين جاهه العريض وتهافت هذه الشركات عليه ؟

وإذا تركنا الإجابة عن ذلك لأحاديث الصحف والمجالس ، وما يتناقله الناس من همس أو جهر ، فهل لنا أن نسأل هل هناك علاقة بين حرص الشركات على هؤلاء النواطير ، وحاجتها إلى البوليس يراقب أندية العمال ، ويطارد جماعاتهم المتدمرة في كل مكان ؟ ؟

إن العمال يدركون كل شيء .. يدركون كيف تؤكل حقوقهم وتحارب مطالبهم ، ويعلمون مهمة النواطير المستأجرة لدق عظامهم وكيتم أنفاسهم .. والعمال اليوم غيرهم بالأمس ، وهم بالأمس غيرهم قبله ؛ ونحن في عصر الوعي القائم على المطالبة بحقوق الإنسان ؛ وقد عرفوا من التطورات العالمية ، ما شجذ خيالهم ، وألّهب وجدانهم ، وصاروا يعرفون بعد ساعات ما يحدث في أقصى بلاد العالم من حركات انقلابية ؛ وليس من الحكمة أن لا نتطور في علاقتنا بهم ، فإن تجاهل هذا الوعي الجياش ، إذا أخرج الانفجار يوماً أو يومين ، فلن يؤخره إلا إلى ريثما يكون مدمراً مجتأحاً ،

ويومئذ لا ينفع العلاج ولا يغني الندم شيئاً . . إن العامل لا يطلب إلا حقه الطبيعي في الأجر المجزى ، فإذا لم نعطه هذا الحق رغبة منا في إقامة موازين المعدلة ، فلنعطه إياه درءاً ليوم ننشد فيه المعدلة فلا نراها !!

إننا لم نذكر في هذه الكلمة إلا رموس المسائل ، ولم نذكر كل ما نعرف من هذه الرموس ؛ وحين نحكم هذه الأوضاع إلى قاعدة استعباد الأحرار التي قررها أئمة الإسلام نجد شركائنا الكبري قد تحولت أسواقاً رهيبة للنخاسة يسام فيها الأحرار ما لم يذقه العبيد في عصور الرق . . وحين نحكمها إلى منطق العصر ، نراها تحولت بهذا السكبت والإكراه إلى مستودعات خطيرة قابلة للاشتعال والانفجار في أي وقت . . ومن الجريمة أن يدعى العمال في هذه اللحظة إلى غير ضبط النفس واصطناع الروية والأناة ، وحسن التبصر في العواقب ، فإن الرفق متى أحكم له التدبير وصل بصاحبه إلى ما لا يصل إليه غيره . . إننا ندعوهم إلى التجمع حول الإسلام ولقد بسطنا لهم من تعاليمه ما تهش له السرائر . . والإسلام دين الرفق والدعوة بالتي هي أحسن . يجب التجمع ويدعو إليه ، ويكره الفرقة ، ويعدّها سبيل الخيبة والفشل . . التجمع القائم على وحدة القلوب ، ووحدة الغرض والهدف ، ووحدة الوسيلة ، ووحدة الإيمان . . .

وحين نعتبر إثارة مشاعر العمال على ما هم فيه جريمة ، لا نقصد إلا مصلحة الوطن ، وخير العمال أنفسهم قبل غيرهم ، فإن ثورة الجماعات لا عقل لها ، وإذا اندلعت فلن يكون وقودها إلا هؤلاء وذووهم قبل سواهم ، وتلك هي طبيعة الفتن التي أعلنها القرآن الكريم بقوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أما هؤلاء الخنازير التي تأكل السمحت وتسمن على الحرام ، فإننا ندعوهم أن يتقوا الله في أنفسهم ، لا في أوطانهم ؛ فإن أنفسهم هي التي تهمهم قبل أى شيء بل دون أى شيء ؛ ولو كانوا يرقبون في هذا الوطن إلا أو ذمة ، مارضوا لعزته أن يجرحوها ببيع أسواق النخاسة فيه كرة أخرى ، ولسمت بهم وطنيتهم أن يهدروا مثقال ذرة من آدمية أى عامل أو عزته وكرامته ، ولما سمحت نفس أحدهم أن ترى مواطناً له يمشى في موكب العبيد خاشع الطرف ، منكس الرأس ، شاحب اللون ، ينوء من هموم نفسه وبنيه بما يشغل كاهل الجبال . . نعم ندعوهم أن يتقوا الله في أنفسهم وأبنائهم ، وإن قليلاً من التأمل وبعد النظر ، ليبصرهم بشناعة ما يصيرون إليه ، ويملك عليهم زمام عواطفهم الشرهة الجاحدة ، ويجعل السيطرة للعقل وحده وهو قسطاس الحقوق ، وميزان المجتبع ، ونبراس المصلحة والعواقب الحميدة والله ولى التوفيق .

التفانيش . أو أهشاش السبوعية :

الفقر . والجهل . والمرض : ثالث بغيض رددته الأفواه ،
وحفيت بتسطيره الأقلام ، وشقيت بسماحه الأذان ، وضجت
إلى الله من رؤيته الأنظار ! .. فإنك إذا تركت ميدان الصناعة
وشركاتها الضخمة ، ويمت وجهك شطر الميدان الزراعي ، ألفيته
على حال إن لم يكن شراً من سابقه فلن يقل عنه بؤساً وبشاعة !
إنك حين تتجول في « تفتيش » من « التفاتيش » الزراعية
الكبرى .. « والتفتيش » إن لم تكن تعرف ، هو إقطاعية ذات
مساحة كبرى من الأرض ، تنتشر في رقعتها عدة قرى ، « وكفور »
متباعدة ، لا يملك أهلها غالباً شيئاً من الأرض ، إذكلها مملوكة
لصاحب « التفتيش » .. والأهالي يولدون على هذه الرقعة ،
ويعيشون فيها ويموتون جيلاً بعد جيل ، فلا يعرفون من ألوان
الحياة إلا ذلك اللون الرتيب الذي يرثه الخلف عن السلف :
دورهم ليست ملكا لهم ورقابهم خاضعة للسيد المالك ، استغفر الله
بل خاضعة « للنناظر » المباشر ، ولمن تحت أمرته من الكتبة ،
والمعاونين ، والحراس .. ولا يندر أن يرى أحدهم الناظر
قد أمر بطرد فلان من داره أو من التفتيش بأسره ، فإذا بالدار
خالية من صاحبها في المساء إذا كان الأمر قد صدر في الصباح ؛
أو خالية في الصباح إذا كان الأمر قد صدر في المساء ...

لا يندر أن يرى المسكين ذلك ، ولا يندر أن يرى « عملية » الإخلاء والطرْد كيف تتم ، إذ يأتي زبانية الحراس والخفراء فيهممون على الدار في قحّة وقسوة ، فيرمون للضحية التعسة ما شاموا من المتاع المهلهل ، ويقذفون بنسوته وبنيه إلى الخارج ، فإذا سمحوا له أن يأخذ بعض ماشيته ساقوا ذلك القطيع من الآدميين والماشية على حال من الهوان يفتت الأكبّاد .. إلى أين ؟ .. لا يعلم إلا الله .. فقد يكون هذا الشريد منحدرًا من سلالة استوطنت هذا « التفتيش » منذ مائة سنة ، أو مائة وخمسين أو أكثر ، لم تعرف خلالها غيره إذ تعيش داخل نطاقه المحصور عيشة بدائية ، لا علم ، ولا حضارة ولا شيء مما يوجب الأسفار ، والرحلة ، والخروج لرؤية ما وراء عالم التفتيش ؛ .. فإذا طرد هذا القطيع ، فإنه يهيم على وجهه في سداجة لا يدري إلى أين .. ولا متى يحط رحاله ؟ .. أقول لا يندر أن يرى أحد أبناء هذا التفتيش أو كلهم هذا المنظر المهين القاسي ، دون أن يروا نجدة من أحد تنصف هذا الطريد ، وترد عنه تلك العاقبة ، وتقيم الإنسانية ولو بعض الاعتبار .. يرون ذلك فلا يكون له في نفوسهم إلا الإقرار المطلق بسلطان الناظر . وتوطن النفس على الأذعان الكامل لمشيتها وكلمته .. والملق المنكر الذليل لآتباعه وزبانيته .. وفي التفتيش عدة نظار ، يشرف كل منهم على زراعة قرية أو قريتين أو أكثر .. ويحكم هؤلاء النظار مفتش ، هو نائب

صاحب الأرض في إدارتها، ولذا تسمى الاقطاعية كلها بالتفتيش ولقد عشنا بشرح هذه الكلمة لأنى رأيت كثيرين يسألون عن معناها .. والآن نعود إلى ما كنا بسبيله ، من بيان مظاهر الفقر والجهل والمرض ، فإنك حين تتجول في تفتيش من هذه التفتيش الكبرى ، لا ترى أى أثر من آثار الثراء إلا على النظار وما إليهم من الزبانية ، فنازل الفلاحين ضيقة قصيرة ، مبنية من الطين ، كثير منها يتألف من حجرة واحدة ، وفراغ أمامها المباشية .. وقد تتألف من حجرتين !

وقد تسأل : إذا كان هؤلاء يقيمون بالتفتيش من مائة سنة أو أكثر ، فكيف تسعهم هذه الدور وتسع ذريتهم ؟ .. وقد كنت في زيارة لأحد تفتيش أو زراعات وزارة الأوقاف ، وكانت المباني — والحق يقال — مقامة من الحجر ، فسألت نفس السؤال فابتسم محدثي وقال : انظر هذه الدار التى أمامنا ! إنها مؤلفة من حجرة واحدة واسعة ، يقيم فيها رجل مع زوجته ، وله ابنان متزوجان يقيمان معه ويبيتون فيها جميعاً بزوجاتهم وأطفالهم جنباً إلى جنب وله بنت طرأ على القرية شاب مستأجر ، لم يجد له فيها سكناً ، فزوج من هذه البنت ، وهو يبيت معها في حظيرة المباشية التى أمام تلك الحجرة تحت أرجل البهائم !! .

ولا أذكر أنى أحسست فى حياقي مثل هذا الوجدان الذى أغرق وجودى كله باحساس غامر لا أملك له بياناً . لقد أحسست

كأن ضميرى يصعق بهذا المنظر الذى يهبط فيه هؤلاء الأناسى
إلى مادون آدميتهم !! ولن يستطيع أشد الناس جدلا ودفاعا
عن تلك الأوضاع أن يقنعك بأن هؤلاء المساكين يعيشون
فى حال من الكرامة النفسية ، أو « الحياء الجنىسى » أرقى من حال
البهيمة أو الدواجن التى يرقدون بجوارها

وصمت ، ولم أقو على الكلام ، فقد كان فى صدرى شيء
ينحل تماسكه رويداً رويداً ليصير لجة من العواطف الآسية
الممتعضة الباكية

وعرف محدثى ماعرانى ، فقال : إن هذا مما آسف له أشد
الأسف ، وإن الناس اعتادوا هذه الحالة من الحزى ؛ وقد حاولت
مرة أن أكون إنساناً ، فما أن خلت حجرة حتى بادرت بنقل
رجل وزوجته وبنيه إليها تخفيفاً من حدة الضغط ، لا علاجاً
لمشكلة الحياء ، وأخطرت الوزارة بهذا الاجراء ، وما كنت
أحسبه اجراء خطيراً تقوم له الوزارة وتقعده ، فقد أرسلت
إلى كتيبة من المحققين ، وإذا بالتم توجيه إلى والأسئلة تنزل
كال مطر .. كيف أسكن الناس مساكن الحكومة بدون أذن ؟
كيف أخالف اللوائح ؟ .. كيف لم أوجر هذه الحجرة ؟ كيف أبدد
مال الدولة ؟ .. كيف .. كيف !! واسكن الله سلم وانتهت المحنة
« بلغت نظر » حتى لا أعود إلى تبديد مال الدولة مرة أخرى !

هذا بعض مظاهر الثراء الذى يسمى ويصبح فى نعيمه المغدق

جماهير الفلاحين من سكان وادى النيل !! . أما الملابس الشائعة
فهي الخرق البالية الجرباء ، يمسك بعضها بالرقع المتناثرة
لمؤلف ما يسمى جلبابا . . ولو أنك ساومت أحد السادة أن
يمسكها بيده ، لا ان يضعها على جسمه ، لانتفض بدنه ووجدانه
من هذا الذى تعرض عليه

والحفاء صيفاً وشتاء هو المظهر الذى يسود رقعة التفطيش
كلها من اولها إلى آخرها ..
وطعام أولئك ما هو ؟

إنه خبز الذرة . أو الشعير . وما يخلله من اللفت ، أو الخيار ،
أو قشر البطيخ . فاذا سخا على نفسه ، فالمش فى وسطه قطعة
صغيرة من الجبن ، يتواثب حولها كثير من الدود . أما اللحم
فلا يأكله غالبا إلا فى المواسم وما أقلها

وقد تسأل : أين الدجاج ، أو الحمام .. وأين القشدة ، والزبد
والبيض ، واللبن الحليب .. لا تسأل عن ذلك ، واذهب إلى أقرب
سوق فى التفطيش للقرية فهناك الخبر اليقين ، تعرف منه أن ضغط
الايجار الذى لا يعرف حداً ينتهى إليه ، لم يترك هؤلاء المساكين
أن يأكلوا دجاجة أو حمامة ، أو يذوقوا القشدة والزبد والبيض .
وإذا عرفت أن نساء القرى التى لا تخضع لسلطان التفطيش ،
وهى قرى أحسن حالا . . إذا عرفت أن نساءها يعير بعضهم
بعضا بأنها حامضة البطن ، تضع خير الدار على هم بطنها ،

وتضع لبن الجاموسة أو قشدها في كرشها ، لأن العاقلة منهن ، هي التي تربط حجارا على بطنها ، فلا تأكل البيضة بل تدأويها إذا كسرت لتبيعها ، وتضع القرش على القرش ، للوفاء آخر العام بقيمة الايجار ، وإن إحداهن تفاخر بأنها تشق بطنها ولا تأكل شيئا من خير البيت .. إذا عرفت أن هذا دأب القرويات في القرى السعيدة الخارجة عن نطاق التفطيش ، فانظر أى عيشة يحياها أولئك الأشقياء الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة ؟

لا أستطيع بيان ذلك المستوى الذى يعيش فيه الأديميون كالجرذان الشقية العجفاء ، يقرضون العيش الأسود الحشن ، الذى يعاف أحد السادة أن يقدمه لسكب من كلابه ... فليس من سبيل إلى وصف هذه المعاش إلا أن تذهب بنفسك إلى إقطاعية من تلك الأقطاعيات ، فإنك حين تتجول فى أنحائها الواسعة ، بين تلك الهياكل الآدمية ! تخيل إليك ، أنك فى واد من أودية الفناء الموحشة ، وأن هذه الأشباح التى تراها غادية رائحة ، ليست إلا أرواحا مما يسكن أودية العدم ، تشكلت هياكل عظمية ، غائرة العيون ، بارزة الوجنات والجباه ... تقوم سلسلة العنق فيها على ترقوتين ، أو خطين من العظام ، يحدثك بروزهما بكل ما وراء الشبح من بؤس وشقوة ، وذل !!! أما عظام الصدر ، فهى ضلوع كل هيكل عظمى ، تستطيع أن تعدها من بعيد عظمة عظمة ...

وأخشى أن يجمع بي الوصف ، فأقول إن ذراعه للنخيلة السوداء
المعروفة العظام ، لا ينقصها إلا أن تمسك منجل الخراب الرهيب ،
لتظن نفسك أمام هيكل متحرك مما اعتاد الفنانون أن يرسموه رمزا
للعدم والخراب ، والفناء !!! .

أما التعليم ، فقد كان السادة إلى عهد قريب يقاومون إنشاء
المدارس الأولية أو الإلزامية ، أما الابتدائية أو الثانوية ، فهي
بطبيعة الحال ليست في حلم أحد . . . نعم يقاومونها لأن التعليم
يفسد الفلاحين !!! وسيد التفتيش ليس رجلا من عامة الناس هين
الكلمة ، أو هزيل المقام . . إنه ذو الكلمة النافذة ، والجاه العريض
فلن تقام في أرضه مدرسة واحدة ، ما دام التعليم كالوباء يضر
بالفلاحين ! .

. . . فلما صار من الحتم إنشاء المدارس الإلزامية ، اتخذ
السادة الأجلاء من نفوذهم على المدرسين والنظار ما جعلها قليلة
الجدوى .

والكلام عن الجهل المطبق ، والظلمة الغليظة ، مما لا يستقل
قلم بوصفه ، مما أوقع المساكين فرائس للخرافات ، ودجل المشعوذين
وشباك المحتالين والطامعين . . . ولا أنسى يوما دعيت فيه إلى
إحدى القرى — ولم تكن من قرى أحد التفتيش — لافتتاح
مسجد لها الجديد ، وكانت القرية تحت سلطان أسرة كبيرة ، منها
النواب والشيوخ ، والموظفين الكبار وكان خطيب الافتتاح هو

داعية الإسلام في القرن العشرين غير مدافع ، فظل فضيلته رحمه الله يخطب عن مهمة المساجد ، والمحاريب ، والمنابر ، وأنها لم تكن للعبادة فحسب ، بل كم عقدت في المساجد من ألوية للجيوش وكم خرجت المحاريب من قادة للحروب ، وكم ارتقى المنابر من ساسة للشعوب . . . وأخذت أنظر في وجوه أهل القرية ، لأنظر فيها وقع هذا الكلام الجميل الذي يقال عن المساجد والمحاريب لأول مرة . . . فيالله لما رأيته ! رأيته عيوناً دقيقة غائرة كأنها عيون السحالف لا تطرف . . . وأفواها مطبقة ، ووجوها معروقة ، سمراء ، مسفوعة بلفحة البؤس والبرد والحر ، قائمة على رقاب نحيلة تسكوم عليها جلدها الحشف ، كأنها أيضاً رقاب السحالف ، وما من أثر على أحدهم لفهم ما يقال ! ! العين جامدة منطفئة لا تبرق بومضة من ومضات الفهم . . . والأفواه عليها شفاه كشفاه الموتى لا تختلج بما يدل على كيان حي متأثر بما يسمع ، والوجوه والأجسام مسمرة كأنها التماثيل . . . ! !

ونزل الداعية الرشيد وصلى بالناس إماماً ، ثم انفتل إليهم يعظهم عن الصلاة مرة أخرى ، بعد أن أدرك من عيونهم ، ووجوههم ما أدركت . . . وغير لغته فأخذ يتكلم « عن الحاصرة السوق » ، « والحاصرة العمولة » ، والفرق بين « الحاصرتين » في « خيط الدوبارة » ، والسمار المعروف . . . الخ ، ليقس لهم على ذلك أن « الصلاة أيضاً نوعان : نوع سوق ، وآخر « عمولة » . . . وهنا فقط

ولأول مرة . . رأيت شفاه هؤلاء المساكين تنفرج وتبرق عيونهم
بلهجة من الفهم وأراد الداعية الكبير أن يستطرد لبيان
الفرق بين الصلاة الجيدة والصلاة الرديئة ، ولكن ألفاظه الحصرية
والدو بارة ، لم يكن لها محل ، فعادت التمايل إلى ما كانت عليه ،
فطوى الرجل حديثه وانتهى



وأنت في غنى عن أن تعرف أن هذا كله يدور في بلاد النيل
أرض الخصب والنماء ، والذهب والفضة ، والخير الوفير ، وهو
من أعجب العجب الذي إن دل على شيء فعلى شذوذ صارخ
في الأوضاع .

فهؤلاء هم غارسوا الجنان والبساتين ، والحدايق ، ومغرقو مدن
مصر وأسواقها بالقاهكة الكثيرة الشبيهة ، وهم محولو الأراضي
اليابسة ، والحقول الجرداء مروجاً ضاحكة ، تهتز بالحياة والنضارة
والثمر ، الغزير وهم منتجو الذهب والفضة ، من مياه النيل
الدائمة وطعمها السخى الذي لا يمل السخاء ، فكيف يكون مصيرهم
هذا المصير وأى عقل يسيغ أن يكون نصيبهم هذا النصيب ؟
وأى حيلة ألقى بها الشيطان إلى أوليائه حتى غيروا خلق الله ومسحوا
بشريتهم إلى هذا الحد الذي غابوا فيه عن مستوى الإنسانية .

ونكتفي من ذلك بتفتيش سخا ، فهو ملك الحكومة ، لأملاك

للأفراد ، ونختاره أيضا لأن كلاما ألقى عنه منذ قريب في مجلس النواب ، فكان موضع دهشة ومشار استغراب من الوزراء أنفسهم .
كان هذا التفتيش من أملاك الخديو إسماعيل ... وظلت الأحداث تداوله بين جهات مختلفة ، فمن الدومين ، إلى مصلحة الأملاك ... إلى أن استقر أخيرا في حيازة وزارة الزراعة .

ولا نعيد لك ما ذكرناه سابقا من أن الأهالي لا يملكون مثقال ذرة من أرض هذا التفتيش ، وكيفي أن تعلم أن عمد القرى ، ومشايخها ، لا يملكون الأرض التي تقوم عليها دورهم .
ووزارة الزراعة في هذه الألوف المترامية الأطراف من الأفدنة تزعم أنها تجرى التجارب على الحيوان والدواجن ، وتستنبت مختلف النبات استكثارا للبذور الصالحة ... أما الحيوان الآخر الذي يسمى إنسانا ، فلا تجارب له ، ولا نصيب من عناية الوزارة

لقد أنشأت للحيوان : للجاموس ، والبقر ، والثيران ونحوها حظائر نظيفة ... تثار بالكهرباء ... وقد نشرت بصور للجاموس وهي تستحم بالماء النقي .. يغسلها به عمال موظفون لهذه الخدمة ... أما الآدميون فيسكنون المساكن التي حدثناك بعض حديثها فيما سبق ؛ ويشربون الماء العكر الملوث بمختلف جراثيم الأمراض ... نعم يشربون من هذا الماء ، ولا يسمح لهم أن يشربوا

من « حنفيات المياه » الثقية التي هي وقف على البهائم وحضرات
موظفي التفتيش

ولا تظن ياسيدي أن هذا ضرب من المبالغات ، فهو بعض
الصرخة التي صرخها في البرلمان النائب المحترم الشيخ عباس
حمادة ... بل إنه قال في مياه الشرب ، إن الأهالي في فترة الجفاف
وهي أربعون يوما ، يشربون من البرك ، لأن المياه الجوفية
مالحة . . كل ذلك ولا يسمح للأهالي أن يذوقوا مياه الحنفيات
الثقية ! . . وقال حضرة النائب ، إن الحيوان هناك يحظى بعناية
الاطباء المختصين به . . أما الإنسان فهيهات ! . .

والعمال في هذا التفتيش نوعان :

نوع اسمه « التلمية » وهم العمال الدائمون الذين يشتغلون
بلا انقطاع . . ويعمل الواحد طول العام ، مقابل ثلثي فدان ،
أو فدان يزرعه بدون إيجار .

ونوع اسمه « زهورات » وهو أحدث خدمة من السابق ،
وأقل أجرا إذ ليس له إلا نصف فدان .

وهناك فئة ثالثة اسمها « الخطرية » أي التي تعمل باختيارها
في أرض التفتيش بأجرة يومية .

أما « التلمية والزهورات » فيعملون طول العام . . ليس لهم

إجازة خميس أو جمعة . . وليست لهم إجازة في موسم من
المواسم . . .

لقد قيل في مجلس النواب شيء من هذا فقال بعضهم إنه شيء
عجيب ، وكانوا كأنما يسمعون أفاصيص القرون الأولى . . فتابعني
فيما أسرد عليك من قول الحق ، نقلا عن موظفي التفتيش
أنفسهم . . ليست هناك أجازات في أى يوم من أيام السنة . .
ولكن إذا جاء أحد العيدين وصادف قلة فيما يطلب من العمل ،
فله يوم واحد ، أما إذا كانت الأعمال كثيرة — وما أكثر
ما تكون كذلك — فلا إجازة في عيد أو غيره !!

فإذا أراد التلى السعيد أن يزوج بنته ، أو ابنه ، أو ماتت
أمه ، أو زوجته ، بل إذا مرض . . إذا انقطع عن العمل لشأن
من هذه الشؤون فلن يقال إنه في إجازة مرضية ، أو اعتيادية ،
بل متمرّد ، فيعاقب بأن يستأجر « نفر » من « الخطرية » يشغل
مكانه ، وتدفع له أجرته من خزينة التفتيش . . ثم يثبت السكاتب
المختص تلك الحالة في ملف ذلك الذى مرض أو انقطع لموت
أمه . . ويثبت المبلغ الذى دفع « للنفر الخطرى » .

ويتوالى العمل في أرض التفتيش ، ويقتضى رى الأرض
أن يسهر المسكين أمام المياه ليلا ، قيقضى نهاره عاملا ، وليله
ساهرا لا يغفو إلا لما .

وتهجم أيام حصد محاصيل القمح والأرز ، والعمال الدائمون

لا ينهض عددهم بمواجهة ضرورة جمع المحصول بسرعة قبل تعرضه للتلف ، والتفتيش الحريص على مال الدولة ، لا يرضيه أن يستأجر « أنفارا من الخطرية » على حسابه لمعاونة الآخرين في جمع المحصول قبل تعرضه للتلف ، فيلقى الشيطان المريد إلى قلوبهم المقدودة من الصخر ، أن يقسموا هذه المساحات الشاسعة على التملية والزهورات ويفرضوا عليهم الانتهاء من حصدها في مدى معين فإن انتهوا فيها ونعمت ، وإلا فإن الوزارة ، أى الحكومة الرشيدة ، تستأجر « أنفارا من الخطرية » على حسابهم عقابا لهم على التأخير والإهمال ؛ ونصيب الرجل من هذه المساحات ، قدر من الأفدنة لا يستطيع — قطعاً — أن يحصدها وحده في المدى المضروب له ، وعليه أن يختار بين أن يستعين بزوجته وأبنائه ومن شاء من أصهاره أو تستأجر له الحكومة على حسابه رجلا من الخطرية .

ويتهى العام ، ويقدم موعد الحساب ، فيجد المسكين أن قد سجلت عليه الحكومة من الديون جنيهين أو ثلاثة أو أكثر ، دفعتها « للخطرية » الذين قاموا بالعمل نيابة عنه وهو مريض أو ساعده في الفريضة الثقيلة التى فرضتها عليه فى حصده المحصول... ولا يسمح له بنقل محصول فدانته ، أو نصف الفدان الذى خصص له ، إلا بعد أن يخصم قيمة الدين من هذا المحصول !! ولك أن تسأل : ومن الذى يزرع له الفدان أو نصف

الفدان الذى تفضلت به عليه الحكومة ؟ وهو سؤال لا محل له ، لأن زوجته لم تخلق للبيت ، بل خلقت لـكل شيء . . . فهى التى تزرع له الفدان ، وهى التى تساعد فيما يصيبه من محنة حصص المحصول ، وهى تقوم بعد ذلك بخدمة البيت .

فإذا أردت أن تعرف سر فقر هؤلاء المساكين ، فاقدر له ما ترى من أجر يومى حلال يحزى ما يقدم من عمل . . ثم اضرب ذلك الأجر فى ٣٦٥ يوما ، ولا أقول فى ٤٠٠ يوم . . ثم انظر الفرق الشاسع بين حاصل الضرب ، وإيجار الفدان أو نصف الفدان فإياك — إذا — تعرف سر هذا الفقر .



ودعنى أحدثك بعض الشيء عن « الخطرية » إن منهم نساء ، ورجالا ، وفتيات وفتيانا . .

أما الفتاة التى لا جمال لها ، فعملها فى الحقل . . هكذا قرر حضرة النائب فى البرلمان . . وإذا كان الحقل من نصيبها ، فهى لا تعمل فيه إلا إذا خلا مكان أحد التلمذة بالمرض أو نحوه . . أى أن شأنها كمشأن أى خطرى آخر ، لا يعمل فى أرض التفتيش إلا عند الحاجة إليه .

أما الجميلة ، فلا تعمل عند الحاجة . . لأن الحاجة إليها دائمة . . ولا تعمل فى الحقل ، بل تعمل فى بيت الموظف ، تخدم زوجته

إذ كان متزوجا ، أو تقوم له بمهمة الزوجة إذا كان عزبا ..
فإذا كان لها أخوة كانت سبب نعمتهم ، فالخطرى منهم يسرح
إلى الحقل دائما بدون انقطاع ، دون غيره ، وقد تختار له وظيفة
« خفير » وهى من الوظائف الممتازة فى التفطيش بالنسبة لهؤلاء
المساكين .. وكثيرا ما تحدث المأسى الفاجعة التى تجيء خاتمة
لهذه المهازل المجرمة القذرة .

ومن حق الخطرية أن يعلم الناس عنهم أنه لا عمل لهم إلا إذا
مرض مريض ، أو انقطع منقطع عن العمل ، فإذا لم يمرض
أحد ، أو لم ينقطع ، فلا عمل لهم .. وقد يمضى العام دون أن
يشتغل بعضهم إلا أياما معدودة .. ولهذا تراه ينظرون إلى
التلمية كأ أنهم فى نعيم سابغ يحسدون عليه !

ومن الجرم الفاجر الذى تتردد العقول فى تصديقه ، أن
هؤلاء المساكين ممنوعون من العمل فى التفطيش المجاورة للمملوكة
لآخرين .. ففلان بك أو فلان باشا الذى يملك اقطاعات مجاورة
قد يحتاج فى بعض المواسم أو فى بعض الأحيان إلى الأيدي
العاملة .. ولكن الويل لمن تحدثه نفسه من هؤلاء « الخطرية »
أن يقبل العمل هناك !.. يحذف اسمه من الديوان ، ويطرد من
دار الحكومة التى يسكنها ، ولا يبقى فى التفطيش لحظة واحدة ..
وذلك حتى لا يعرف هؤلاء التعساء معنى الأجور المجزية ، أو الشديدة
بالمجزية ، فتدخل الروح الشيوعية بين عمال التفطيش السعيد !!

ولقد حدثت أن أحد المسؤولين بتفتيش سخا رأى إحدى سيارات النقل التابعة لتفتيش الخاصة الملكية بكيفر الشيخ ، رآها تدخل منطقته ، فلما علم أنها جاءت لتتنقل عمالا من « الخطرية » للعمل بتفتيش الخاصة ، أخذته العزة بالإثم ، وطرده السيارة .. واهتزت بعدها بقليل ، الأسلاك ، ودقت الأجراس وذعر المفتش وقامت الدنيا وقعدت ، واستشيت الخاصة الملكية من هذه القاعدة التي لانعرف لها وصفاً يفي ببيان ما فيها من إجرام فاجر بشع !

ولقد ذكر النائب المحترم الشيخ عباس حمادة تعليقا على هذه الحالة أغنانا عن كل تعليق ، إذ قال : « ووزارة الزراعة تستأجر العمال بطريقة هي أجدر بالقرون الوسطى ، وعهود الأقطاع ، منها بعصر النور والحريّة الذي نعيش فيه .. وقد قصدت الوزارة بهذه الطريقة ربط العامل بالأرض حتى يتسنى بذلك إذلال نفسه وقتل حريته ، تلك الحرية التي هي أولى حقوق البشر . ووسيلتها في ذلك تهديد العامل بالطرد من أطيان الوزارة بل من بلاد الوزارة بأسرها ، إذا بدرت منه أى هفوة مهما قل شأنها وهو في الحقيقة لم يرتكب إثما ، سوى أنه قدر له أن يخلق في تلك البلاد التعسة البائسة .

وقال في مكان آخر : « وهى — وزارة الزراعة — مع الأسف الشديد تعامل الأهالى معاملة تذكرنا بما كان يجرى في القرون الوسطى ، وإذا كان التاريخ قد علمنا أن مصر كانت تعتبر

« جرننا ، في عهد الرومان ، فان البلاد التابعة لوزارة الزراعة الآن تعتبر جرننا لإكثار البنذور ، فأهالى تلك البلاد يكبدون ويكدحون ليروا بأعينهم ثمرة جهدهم تعباً لتوزيعها على كبار الملاك .. وإن كان قد قدر لهم أن يتحملوا ذلك إلى الآن ، فإنى أعتقد أن الوقت قد حان لأن تنفجر نفوسهم ، وعندئذ لن تستطيع الحكومة أن تحول بينهم وبين ما يصبون إليه .. كأن هؤلاء يدفعون بتحملهم تلك المعاملة الشاذة القاسية ضريبة مجرد بقائهم فى أرض تلك البلاد ، وهى ضريبة فادحة ، أوجدت البطالة . ونشرت الفساد . وهوت بالأخلاق .. حتى أصبحت تلك الجهات كأنها مرجل ينذر بالانفجار وبالشر المستطير ، .. انتهى كلام حضرة النائب .

ولابد أنه وقر فى ذهنك الآن أن وزارة الزراعة بهذه الوسائل الشاذة القاسية ، قد استطاعت أن تضاعف من دخل الخزانة العامة ، وتساهم فى إمداد ميزانية الدولة بقدر محمود .. وذلك هو الطبيعى ، فالأرض أضحت بهذه الوسائل التى لم يسمع بها ، كأنها تزرع بجنانا .. ولسكن من الفضائح المخزية أن هذه الأراضى تخسر ، ولا ترج ، وتحمل الخزانة العامة أعباء خسائرها المريبة .. وذلك هو ما تضمنه تقرير اللجنة المالية بمجلس النواب ! وذلك هو ما حمل تلك اللجنة أن تقترح على الحكومة تأجير تلك الأرض للناس ، والعدول عن زراعتها .

وبعد فهذا لون من ألوان معيشة الفلاحين ، فى تفتيش من

التفتائش ، ولا نجزم بأن الحال فى التفتائش الأخرى ، كهذه الحال ، فقد تكون أسوأ منها ، أو أهون ، وقد يخلو بعضها من ذلك . وقليل ما هى ، ولكننا نحب أن نلفت أنظار أولئك الجبهة المخدوعين بالشيوعية ، إلى مأسى ذلك التفتائش !

أليسوا يريدون تحريم المملكية الفردية ، وانتقال كل ملك للدولة ؟ أو ليسوا يريدون أن تؤول الأرض الزراعية كلها إلى الحكومة لتديرها وتشرف عليها ؟ . إذا ، فهم يريدون أن نصبح جميعاً « تلمية » و « زهورات » و « خطيرة » ، ويريدون أن نعيش تلك العيشة التى يحظى فيها الحيوان بما لا يحظى به الإنسان !! .. ويريدون أن نصبح جميعاً تحت سلطان موظفى الحكومة يتصرفون فيما كما يتصرف تاجر الرقيق فى رقيقه ، ويجعلون من بناتنا حظايا لفراس الفسق .

إننا نهيب بهؤلاء المخدوعين — إذا كانوا حقاً يريدون الإصلاح والعدالة — أن يتأملوا هذا اللون من ألوان الإدارة الحكومية ، ويقيسوا عليه المصير الذى يؤل إليه حال الناس ، حين تصبح الحكومة مالكة لجميع الاراضى !!

إن الظلم شىء .. وعلاجه بالجهل وقصر النظر والفوضى شىء آخر .. وما حسن أن نبادر بالتشكيك فى نيات أعداء الشيوعية ، واتهامهم بأنهم أعوان الظلمة والرأسماليين .. إن أحداً لا يرضى بالظلم ، لا يرضاه لنفسه ولا لغيره ، ولكن من الظلم أن أعالج

الداء الحاضر ، بداء سيحل حتماً عن قريب أو بعيد ؛ وإن تحقق العدالة التي يشهدها الخيرون ، العدالة الطبيعية القائمة على سنن الله ، وفطرة المجتمع ، لا يكون أبداً بالمسكنات الوقتية ، والحلول الآلية التي لا شيء فيها غير قصر النظر والغباوة !!

ونريد أن نسأل هؤلاء إذا صارت جميع الأراضي ملكاً للدولة — لا قدر الله — هل يطرأ تغيير على أهالي تفتيش سخا ؟ هل يصبحون مالكيين ؟ إن المساكين يريدون تغيير ما بهم بجدة الأنف ، ولو باستئجار الأرض — لا بملكها — فلا يظفرون أنما نريد لهم أن يتغير حالهم إلى شيء من رفاهة البال ؟

قد يقول قائلهم إن نظام الإدارة سيضمن للجميع عدالة التوزيع والمساواة في خيرات الدولة إلى آخر ما يهرفون به ؛ فإذا كانوا يحسنون الظن ببطيخة الحكام حين يصبحون شيوعيين ، فلماذا لا يظنون بهم هذا الظن الحسن في غير الحكم الشيوعي ؟.. إن الإنسان هو الإنسان ، شيوعياً كان أو رأسمالياً أو غير ذلك ولن يكون هذا الإنسان شيئاً فاضلاً أبداً إلا إذا غدا وجدانه ، محكوماً لا بقبضة القانون والإرهاب ، ولكن بسلطان المثل العليا ، وهيمنة فضائل العدل والمساواة والرحمة ، وتقدير كل من القيم الروحية والمادية قدرها الصادق الحق . وهذا ياقوم لن نجده إلا في الإسلام . أو فذلونا على شيء خير من هذا نتبعه ، أو فقولوا أنكم تسيئون الظن بمثل الفضيلة والخير نفسها ، وأن الإنسان يجب

أن يظل ذلك المخلوق الوضع الذى يرتكس ويختبط فى تلك المجموعة الدنيئة من شروور الحيوانية المستهتررة .

إن تلك الجهود المجرمة التى تبذل لإثارة مشاعر الناس ، وإيقاظ الفتن ، وتجميع المخدوعين للشر والفوضى ، أولى بأصحابها أن يبذلوا بعضها فى التبشير بالخلق الحسن ، والإيمان الحق ، ومبادئ الخير التى بسطنا بعضها ، ونرجو أن يوفقنا الله إلى بسط بعضها الآخر ، ونسأل الله لهم ولنا سواء السبيل .

ونريد أن نهمس للحكومة ، هل قصدت الإبقاء على تفتيش سخا لتكون إدارته دعاية قوية مقنعة بسوء عواقب النظام الشيوعى ، أم أن ذلك جاء رمية من غير رام ؟ . وأيا كان الأمر فإنصاف هؤلاء المساكين ، وأمثالهم لن يترتب عليه إلا تقويض كل حجة وكل دعاية لمبادئ الهدم والتقويض والفوضى . فابدئ الإصلاح والإنصاف ، وطبق فى جد مبادئ العدل والمساواة !

صفات الزيجار الكبرى :

وقد اقترحت اللجنة تأجير الأرض للأهالى والعدول عن زراعتها ، ولا ندرى هل بعثها على هذا الاقتراح رغبتها فى إعفاء خزانة الدولة من تحمل الخسائر ، أم راعت إلى جانب ذلك معنى الرحمة بالأهالى ؟

إنها رمت بلا شك إلى تخفيف أعباء الخزانة . . فإذا كان من

قصدوا التيسير على الناس كذلك ، فان الواجب كان يقضى عليها
بنصح الحكومة ، أن يكون التأجير منها للفلاح مباشرة ، دون
اللجوء إلى ما تتبعه في تفانيشها الأخرى من تأجيرها صفقة
واحدة لكبير من الأثرياء أو ذوى الجاه والنفوذ . . فان تأجيرها
للفلاح مباشرة هو عين الرخاء وسبيل من سبيل علاج الفقر الذى
عز علاجه على الجميع !

إن عادة تأجير الأرض صفقات كبرى اتسعت وانتشرت
وصارت موضع الألم والشكوى ، والحسد والبغض والتمرد .
تعلن الحكومة أو غيرها تأجير إقطاعية صفقة واحدة ،
فلا يتقدم إلا كبار الأثرياء بطبيعة الحال ، أو من لهم بعض النفوذ . .
فاذا كانت أرضاً حكومية ، أو تابعة لوقف منسى ، أو ملكاً لجمعية
كبرى ليس فيها من يحاسب المتصرف الخطير ، ذا المنصب الكبير
أو الجاه الذى لا يقل عن جاه وزير . . إذا كانت الصفقة من هذا
القبيل أجرت « بالممارسة » أو أجرى لها مزايا صوري ، ليتم العقد
لأحد الأنصار أو الأصهار ، أو الأبناء أو نحوهم من ذوى القربى
والحسنيين على ذوى الحل والعقد ، بأرخص القيم . . ليؤجرها
من « بطنه » بقيمة فاحشة .

أما غير ذلك من الاقطاعيات فيؤجره ذووه بالإيجار الذى
يملا عيونهم ، ويرضى أطاعهم التى لا تسكاد ترضى بشيء .

فاذا كتب عقد الإيجار ، واطمأن كل ملتزم إلى ما صار تحت يده ، وكانت الصفقة كبيرة ، أخذ في تقسيمها قطعاً صغيرة ، فهذه مائة فدان ، وتلك سبعون ، والثالثة خمسون ، والرابعة ؟ وهكذا ثم يعلن حضرته تأجير تلك القطع لمن يزيد !! وهى قطع تزيد على طاقة الفلاح العادى أن يخدمها ويزرعها ، فلا يتقدم الفلاح « المزاد » بل يتقدم قطيع من الأعيان العاطلين ، أو صغار الأعيان ، وبعض الموظفين متسترين وراء بعض أقاربهم . . . ويزيد بعضهم على بعض . . . ويدخل الشيطان طرفاً ثالثاً فيذكي المنافسة ، وينفخ في الصدور بالعناد ، والعداوة والبغضاء ، فلا يكاد أحدهم يكف يده عن « المزاد » إلا بعد أن يرى أن لا خير له من ورائه !!

وتتساءل : هل يقوم هؤلاء بزراعة الأرض التى استأجروها بالمزاد ؟ .

لا . . . إن هؤلاء دخلوا تجاراً أو جلادين ، لا زراعاً !! ولو أن واحداً منهم دار بخله أنه سلبزم زراعتها ، لهرب منها مستعيذا بالله !! ولسكنه الرج الهين والمكسب الذى لا عناء فيه !! الرج الذى لا يكلفه إلا ساعة أو ساعتين يحضرهما فى جلسة « المزاد » ثم يخرج على أثرها حاكماً فى رقاب الاقطاعية !! إن هؤلاء الغلاظ المتعطلين ، يعرض كل منهم نصيبه ليؤجره من « بطنه » الذى لا يشبع . . . يؤجره للفلاح المسكين . . . وقد

اعتاد الفلاح أن يهرب هذا الفظ الغليظ ، لنفوذ في القرية وغير القرية ، فلا بد من الخضوع لمشيئته ، وما مشيئته إلا القيمة القاسمة التي يفرضها على كل فدان .

ولا تستطيع الحكومة إذا كانت هي المالك ، أن تقول لكبار المستأجرين رفقا بمن وراءكم ، فانها أجرت وليس لها إلا أن تقبض إيجارها ، والمستأجر الكبير أن يفعل ما يشاء بالمستأجر الصغير !! إن هذه صفقات لا يراعى فيها في الحقيقة استئجار الطين ، ولكن استغلال من فيها من عباد الله المساكين .. ولو أنهم كانوا يريدون استئجارها للزراعة ، لما أغلواها على أنفسهم ولما حملوها هذا القدر من الإيجار . ولكن هذا لم يرد لأحدهم على بال . وإنما ورد عليه إن وراء هذه الأرض ناسا من بني آدم هم الذين سيكدون ، ويكدحون ، ويؤدون ما يملكه عليهم أو ما يفرضه من المكاسب لنفسه ، ولمن فوقه ، فإذا تبقى لهم شيء بعد ذلك منها ، وإلا فليس أحد مسؤولا عن رفاهتهم مادام السادة قد ذهبوا بما يشاءون من رفاهة ونعيم .

خبرني بربك : ماذا كان من هؤلاء السادة حتى يذهبوا بكل هذه المكاسب ؟ .

قالوا إنها تجارة مباحة ، كذبوا ؟ فالتجارة مجلوب يأتي ، أو صادر يذهب ، أو هي على كل حال مبادلة تقوم على تيسير المنافع وقضاء الحوائج فأى شيء في هذه الصفقات الجائرة يجعلها

شبيهة بالتجارة ؟ .. وأى منفعة عادت على الفلاح من وساطتهم
بينه وبين المالك الأول .

أى منفعة غير الإرهاق ، والغم ، والفقر والعيش النكد ؟

سَيِّطَانُ الْإِلْتِزَامِ :

هل أتاك يا أخى نبأ الالتزام ؟ ؟ إن الذين قرأوا التاريخ
يعرفون ما كان فى مصر أيام المالك والأتراك من نظام الالتزام ،
حينما كان يدفع شخص ما مبلغا من المال ، للجهات الإدارية ،
لتطلق له السلطان فى الإقليم الذى يريده .

والويل لأهل الإقليم بعد ذلك !! لقد كان هذا الملتزم فى
تلك العهود المظلمة يتحول إلى شيطان من شياطين الجحيم حين
يفرض على الناس ما يشاء لنفسه باسم الضرائب ؛ لقد كان هؤلاء
الشياطين لا يقفون فى جبايتهم عند حد . ولا يدعون وسيلة من
وسائل التعذيب الوحشى إلا حملوا الناس عليها . . . وما عهد
العدة والسكر باج منا بمجهول . !

ذلك هو شأن الالتزام الذى عانته مصر المسكينة فى حقبة من
تاريخها فهل يا ترى لجأت الأشداق بهذا النظام فعاد يقرع أبوابنا
بقرونة السود ؟

أجل : إنه شيطان الالتزام يبعث فى صورة الصفقات الزراعية
الكبرى !! فالرجل هو الرجل يدفع المال للجهات الإدارية لتطلق

يده في إقليم ما ، أو جهة ما ، ولا فرق بين الرجائين إلا أن الملتزم كان يجمع باسم الضرائب ، وصاحب الصفقات يجمع باسم عقود الإيجار .

ولا تظن يا أخى أن بشاعة الالتزام في العدة والسكر باج ، وإنما بشاعته في استنزاف معين الحياة من بنى آدم ، دون أن يعرف للاستنزاف حدود أو قيود ! أما العدة والسكر باج فما كانت إلا وسيلة الجباية والتحصيل يومئذ . ولو أنهم كانوا يعرفون غيرها من الوسائل ، أو لو أنهم كانوا يظفرون بما يريدون من الفريسة بسهولة لما جنحوا إلى أساليبهم الجهنمية ! . . لم تفكر الحكومة في قيد تقيد به صاحب الصفقة ، فلها إيجارها فحسب وله بعد ذلك أن يفعل ما يشاء ! ! له أن يفعل ما يشاء ، والبوليس والقضاة والموظفون ، والمحضرون ، وعمد البلاد ، ومشايخها ، وخفراؤها كل أولئك وسائل معبأة للتحصيل والجباية . . . تجبى له مالا تجبى العدة والسكر باج ، وينجو به بعد ذلك أن يكون من طراز أهل العدة والسكر باج .

ترى لو كان نظام الالتزام حياة أ كان يذهب وحده بلعنة الأجيال دون هذه الصفقات ؟

ولقد رأيت أرملة قروية ، في خرقتها الجرباء البالية ، ترفع وجهها إلى السماء ، وتدق بيدها على صدرها ، تدعو الله أن يخرب بيته ، وأن ينقم من ذريته ، وألا يبارك له في بدنه ، فلم أؤخذ بهول

الدعاء كما أخذت بهول القلب المحترق ولهيب الغيظ في صوت
المتهمرد المحنق المظلوم : وسألت عن شأنها فقيل إن فلانا فرض
عليها كذا للقدان ، فلما انتهى العام لم يبق لها شيء من المحصول
بعد أداء الإيجار . . وتسألني كيف يعيش أمثال هؤلاء ؟ ولو أنهم
كانوا يعيشون لأجبتك ! فسألني على التحقيق . . أجبتك كيف
يموتون ، لا كيف يعيشون ! ؟

فألافة أن عندنا — كما عند غيرنا — طائفة تسمن وتنتفخ ،
لأنها تعيش على امتصاص ضحاياها . . فما أشبهها بالعاق الأسود
الذى يعاق فيمتص دماء بعض المرضى حتى يسمن وينتفخ ،
مع فارق كبير أو صغير ، وهو أن العلق إذا شبع وانتفخ ترك
مريضه ثم سقط وهلك . أما هؤلاء فينتفخون ولا يشبعون ؛
ويعتصون الدماء ولا يهلكون . . وهناك فارق آخر أن المريض
قد يتخلص من الدم الفاسد الذى امتصه العاق ، فيصح ويعتدل
مزاجه ، أما هؤلاء فلا يمتصون إلا عصارة الحياة النقية ،
فلا يتركون ضحاياهم إلا أجساماً مهزولة بين الحياة والموت ،
وهذا شر ما تبلى به الأوضاع في أمة .

إن الثروة بنت العمل ، وهؤلاء أرباب العمل ، فأين ما معهم
من ثروة ؟

إذا كانت الحكومة جادة في علاج الفقر والجهل والمرض ،
 فلتعلم أن النيل لن يحمل إلينا من الذهب أكثر مما حمل ، وعليها
 أن لا تسلط ذئابنا الجائعة على منتجى الذهب والفضة . ولتعلم
 أن كثيراً من الذين ينادون بعلاج الفقر والجهل والمرض ،
 هم أنفسهم سبب الفقر والجهل والمرض . بل إن النيل لو حمل
 لنا من سر الخصب أضعاف ما يحمل ، وأحياناً لنا من موات
 الأرض والصحارى أضعاف ما تحت أيدينا ، لامتدت أذرع
 هؤلاء الشياطين ، وأخذت كل ما جاد به النهر ، وظلت بعدها
 أنشودة الفقر والجهل والمرض تذرع البلاد من أقصاها
 إلى أقصاها هائمة بين الأرواح التي تشكلت هياكل عظمية تحكي
 ما اعتاد أن يرسمه الفنانون رمزاً للفتاء ، والخراب ، والعدم !
 فباسم الغيرة على الحق والرغبة في رفاهة هؤلاء المساكين
 نلج على أولى الأمر أن يبادروا بأبطال هذه المخازى ! لا إحقاقاً
 للحق فقط ، ولا لإزهاقاً للباطل فحسب ، ولكن لأن الزمام أوشك
 أن يفلت ، وبدأت الفريسة التمسعة تتحول تحت هذا الضغط
 الدنيء ، إلى وحش شرس حقود

إن من امتهان العقول أن نقترح علاجاً لهذه الكوارث ،
 فالخلال بين ، والحرام بين ، وليس في الوقت متسع للهلزل ، فخير
 لنا ولا ممتناً أن نفتتح العيون على حقيقة ما نتجاهله ، ونعالج الأمر
 على ضوء ما عرفنا من تجارب ، والسعيد من اتعظ بغيره ، ولن

يجب أن يستجيبوا للرجاء ، فأنهار الذهب والفضة تجرى بين أيديهم ، وهم حينئذ لا يستجيبون لصدقة أو تطوع ، بل يؤدون حقوقاً إلى أربابها ، ويقنون أنفسهم وأهلهم ناراً وقودها الناس والحجارة ، ويطبقون المجتمع على أسسه العادلة الوطيدة : « فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون ، إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون »

كلمة أخيرة

ونورد هنا في هذا الفصل كلمة ندحض بها ما يفترى الآثمون على الإسلام من أنه دين تواكل وكسل وركون إلى الراحة من عناء العمل ؛ حتى أوشك كثير من الشباب أن يخدع اضلالهم ، ويصدق ما يرجفون به ..

العمل والزهد :

وما يدل على سوء نية هؤلاء المضللين أنهم تجاهلوا كل ما يعرف الخاصة والعامة من الآيات والأحاديث الواردة في الحث على طلب الرزق . وجهدوا أن يستروه عن العيون والأسماع ، ولم يظهروا إلا ما جاء عن الرضا بما قسم الله ، والكف عن التطلع إلى ما في أيدي الناس ، من زهرة الحياة الدنيا .

وراحوا يرجفون بين البسطاء بما جاء عن الزهد ، ويقولونه
بما لا يستقيم مع مقاصد الدين ، وليس له في أذهانهم ، أو في زعمهم
إلا أنه هو ترك العمل ، ونقض اليد من كل ما يصلح هذه الأرض
هذه هي الضلالة التي حاولوا أن ينفذوا بها إلى عقول بعض
الشباب ، ليسهل عليهم أن يضعفوا ثقتهم بدينهم ، ليوجهوهم بعد
ذلك إلى ما يريدون .

ونحب هنا أن نقرر أن الدين الذي جاء بالرضا ، والنهي عن
التطلع إلى ما في أيدي الناس ، هو الذي جاء بالعمل وحث
عليه ، وجعله قسيم الصلاة في قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة
فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » « وإذا نودى للصلاة
من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع » فالمرء على هذا
مقسم بين عبادة وعمل ، وسعى وصلاة ، ومسجد وسوق .

ولانتناقض أبدأ في الدين حين أمر بالعمل . وحين دعا إلى
الرضا بما قسم الله ، فإن الناس حين ينتشرون في الأرض لا يصيبون
منها إلا بمقدار ما ترشحهم له قواهم البدنية ، أو مواهبهم العقلية ،
أو ملكاتهم الأخرى .. فمنهم من يعود ومعه القليل دون أن يظلمه
أحد ، ومنهم من يعود ومعه الكثير دون أن يغتصب حق أحد ،
فالرضا في هذه الحالة الطبيعية العادلة ، يغمر نفس صاحبه بطمأنينة
وسعادة ، تجعله ينسى ما بينه وبين غيره من فروق مادية .

هذا في الحال الطبيعية العادلة ، أما في غير الحالات العادلة التي يعتدى فيها القوي على الضعيف ، فيظلمه ويغتصب حقه ، فيعود الأول بالكثير ، ويثوب الآخر بالقليل ، فالرضا هو الجريمة ، لأنه سكوت عن المنكر الذي أمرنا بإزالته .

والدين حين يأمر بالثورة في هذه الحالة ، لا يدخل في حسابه قلة الرزق أو كثرتة ، وإنما يهتم فقط بإزالة المظالم ، وإقرار العدالة . ليبنى كل عامل ثمرة عمله في الحياة ، ولتستقيم الحقوق على دستورهما القويم العادل ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .
وأمر الدين كذلك أن لا يمد الرجل عينه إلى مامع غيره ، لأنه يعود عليه بالحسرة والذلة .

يعود بالحسرة لأنه يرى ما يتقلب فيه غيره من نعيم ، وما يعانيه هو من حرمان ، فيصاب بالضجر والشقاء ، وتتغير في نظره مقاييس السعادة ، فيراها مادية سطحية ، لاروحية قلبية . . وهذا خطأ كبير لا يجب الدين أن يقع فيه أحد أو يشقى به . . وأما أنه يعود بالذلة ، فلأن الفقير حين يرى نعمة غيره ، ينكسر له ، ويذل طمعاً أن يصيب مما عنده ، أو يحظى لديه بمنزلة . . وهذا باب من الشر أيسر عواقبه أنه يخلق جيلاً من الضعفاء الأذلاء الذين يعيشون في كنف التفاق والاستخذاء .

ونادى الدين أخيراً بالزهد بعد أن فتح للناس آفاق المثل العليا ، وعرفهم أن تحصيل المال وحياسة المتاع ، إن هو إلا مرحلة

أولى في طريق السكال الإنساني ، مرحلة أولى لها ما بعدها من
مراحل كثيرة ، ومنازل متعددة ، يتقلب فيها المرء ويتدرج نحو
الغاية العليا من كمال النفس وسمو الخلق وسعادة الضمير .
وإنسانية الإنسان إنما تقاس بما يقطع من منازل هذا
الطريق .

وما امتاز الإنسان من الحيوان إلا بقابليته للتطور في مدارج
هذا السكال .

فإذا وقف شخص ما ، عند المرحلة الأولى ، فقد انقطع
في الطريق وتخلف عن غايته ، ورفض مسامرة أسباب التطور
التي تخرجه من حظيرة الحيوان ، إلى رياض الإنسانية المهذبة
الكريمة ، والرضا بهذا التخلف ، إنما هو رضا بالمنزلة الدون ،
وقعود عما أعد له من منازل الفضل والسكال .

أرأيت إلى طالب العلم عندنا ماذا يكون له عندك من
النصح ، لو أنه انقطع باختياره عند مرحلة التعليم الابتدائي ،
وقعد عما ترشحه له مواهبه وثروته من استكمال مراحل
التعليم ؟ إنك إذا أردت أن تنصح ذلك الطالب ، فلن تكون
النصيحة بالغة نافذة ، إلا إذا زينبت له السكال العلمي ، وزهدته
في الاكتفاء بالمرحلة التي وقف عندها ، فإذا نفدت منه إلى هذين
الغرضين ، وجدته يعاف النقص في التعليم ، ويزهد في المرحلة
التي بلغها ، فلا يلبث أن يغادرها إلى ما وراءها .

والإسلام لم يسلك مع الإنسان إلا هذا المسلك الحكيم من النصيح والإرشاد ، فقد رأى أكثر الناس ينقطعون عن إدراك حظوظهم من كمال النفس وسعادة الروح ، ويرضون الوقوف عند مرحلة المتاع الأرضي ، والعيش الحيواني ، فلم يرض لهم البقاء في هذه المنزلة المبتورة الناقصة ، فزهدهم فيها ، وبعث همهم إلى ما هو أعلى .

وبدعى أن الزهد هنا ليس معناه الانصراف عن تحصيل المال ، وترك ما في الأرض من حطام ، وإنما هو التزهد في منزلة الاستمتاع الحيواني ، وزجر الهمة عن الاستغراق في الشهوات الأرضية التي يأتي بها المال ، ونحوه ؛ فإن وراء هذا من ألوان السكال وأنواع السعادة ، ما يجب أن تنبعث إليه الهمم والآمال . كما أن نصيحتك للطالب ليس معناها ترك العلم ، وإنما التزهد في الاكتفاء بالقدر الناقص منه .

نبي الإسلام هو العامل الأول :

وما يقطع دابر هذه الفرية أن نبي الإسلام عليه السلام يعتبر من صميم العمال بسيرته الماثورة عنه من أولها إلى آخرها ، بل يعتبر العامل الأول .. !

العامل الأول عن تجربة ، ومزاولة ، ومعاناة .

العامل الأول عن معايشرة ومخالطة ومعاطفة ومصافاة .

العامل الأول الذى يجب على كل عامل أن يجعله قدوته فى عمله .. وخلقته ، وتدينه .. ورقة سجاياه .

١ — فقد كان فى صباه راعى الغنم ، يرعاها لغيره على أجر يحصل له منه .. فهو من هذه الزاوية قدوة الرعاة .

٢ — وكان عاملا فى التجارة بمال غيره ، وله فى ذلك أمانته المشهورة ونشاطه الجرم ، وكفاءته الخصبية .. فهو من هذه الناحية قدوة عمال التجارة .

٣ — وكان تاجرا بماله بعد ذلك فكان نعم التاجر الصدوق .. فهو قدوة التجار .

٤ — وكان يرقع ثوبه بيده .. ويخصف نعله بيده .. وتلك سنة يطيب لها خاطر عمال هاتين الحرفتين .

٥ — وكان الخدم ربما يقصدونه عليه السلام ليعينهم على شراء ما كلفوا شراؤه من السوق ، فكان يذهب معهم ، وينفذ لهم ما يشاءون .

٦ — وكان جل أنصاره عليه السلام فى دعوته الكبرى ، من شباب العمال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وجزارين ، وغير ذلك من أنواع الحرف والمهن ، حتى كان غلاظ المستكبرين يعيبون عليه أن الأساكفة من أنصاره ، ويستخرون به وبمن معه .

٧ — وكان عليه السلام ربما تحدث إلى العامل بما يجب إليه

حرفته ، وقد روى الإمام الغزالي ، أن عاملا جاءه فقال يا رسول الله : ما تقول في حرفتي ؟ .. قال وما حرفتك ؟ .. قال حائك .. قال حرفتك حرفة أينما آدم عليه السلام .. وكان أول من نسج ، وكان جبريل يعلمه ..

وكان يشجع النجارين ، ويذكر لهم ما يطمنون به في حرفتهم بمثل قوله عليه السلام : وكان زكريا عليه السلام نجارا . . ولا يستطيع العقل أن يتصور ، أن نبيا قضى صباه وشبابه ، وكهولته وشيخوخته في صميم محيط الحال ، يعمل معهم بيده ، ويشجعهم بقوله ، ويثني على حرفهم بالذي هو خير ، ويشرع لهم حقوقهم .. لا يستطيع العقل أن يتصور أن نبيا هذا شأنه كان يدعو أتباعه إلى اعتزال الحياة ، والفرار من محيط العمل إلا أن يكون عقل طفل أو معتوه .

السلام وتخدير الشعوب :

وما يرجفون به كذلك ، أن الأنبياء — ومنهم محمد طبعاً — إن هم إلا رجال اصطنعهم الرأسماليون لتخدير الشعوب والعمال ، وتسكينهم عن المطالبة بحقوقهم . . . !

فهؤلاء المرجفون — عليهم لعنة الله — لم يكفهم التضييل بتحريف الكلم عن مواضعه ، فراحوا يلصقون بخلاصة خلق الله أبشع التهم ، ويمجدونهم من خصائص النبوة . . . ثم من خصائص

الإنسانية الفاضلة . . بل من خصائص البشر العادى ، ثم ينزلون
بهم إلى أسفل درك ، فيجعلونهم مأجورين لأهل الترف والمال ..
مأجورين لهم فى الكذب ، والخيانة ، يوهون بهما على الشعوب
المظلومة ليصرفوها عن حقوقها ، ويحملوها على الرضا بما
هى فيه . . . ! ! !

وإن مجرد نسبة هذه التهم إلى هؤلاء الغر الذين أضاءوا الدنيا
فى أحلك ظلماتها ، ليحكم بكذب الذين افتروها وقذارتهم . . . فإن
الضمير الكريم ليقشعر من تصورهما ويستنزل لعنة الله على من
فكروا فى نسبتها إلى الخلاصة النقية من خلق الله فى هذه الأرض !
فهل تصدق هذه الفرية على إبراهيم ، وهو الذى ألقاه
الرأسماليون وأنصاف الآلهة فى النار بعد أن حاج الذى قال أنا
أحي وأميت فأخذه وألجمه وأخرس لسانه ؟
أو هل تصدق على موسى الذى نازل من قال أنا ربكم
الأعلى ؟

أو عيسى عليه السلام حين تأمر عليه الاستعمار الرومان مع
مع الخونة وتقديمه ليصلب ؟
أو هل تصدق على محمد وهو الذى رفع السيف مع من معه
من العمال والفقراء والمستضعفين فى وجوه كسرى ، وقىصر ،
وأبى لهب ، وأبى جهل وغيرهم من أئمة الجور والطغيان ؟

هل كان محمد عليه السلام يهب بهذه الكتيبة من العمال في
وجوه هؤلاء الطغاة لأنه يريد تخديرها لهم وتسكينها لإذلالهم ،
أعتبر هذه الحركات المسلحة تخدير آ للعمال وتنوياً لهم عن حقوقهم ؟
إلا إن كانت هذه الغزوات التي خلد فيها العمال المؤمنون أروع المثل
في مكافحة الظلم والطغيان والاستبداد والآنانية والإباحية والإلحاد ،
إن كانت هذه الغزوات العالمية المسلحة التي قادها النبي تعتبر تنوياً
للشعوب وتخدير آ للعمال ، فإننا لنرجو لحركاتنا الشعبية وهيئاتنا
العالمية مثل هذا التخدير الذي اندكت به صروح الظلم ، وارتفعت
به ألوية العدالة الإنسانية في شعوب المشرق والمغرب لأول مرة
في تاريخ البشر .

عمال سودور :

إن تاريخ هذه الكتيبة المحمدية الموقفة يتولى الرد على هؤلاء
الخونة الذين استأجرهم دعاة الهدم والإلحاد .. يتولونه بتاريخهم
وسيرهم المجيدة اللامعة !! .. هم حفنة من العمال الفقراء منهم
خبيب بن الأرت الحداد ، وعبد الله بن مسعود الراعي ، وسعد
ابن أبي وقاص صانع النبال ، وبلال بن رباح العبد الخادم ،
وإخوان لهم على هذه الشاكلة الفقيرة المستضعفة .. ألا ما أشبه
الليلة بالبارحة !! كان المستكبرون يعدون عليهم ، ويظلمونهم
حقهم ، ويغرون السفهاء بهم لفقرهم وضعفهم ولمبادتهم القويمة

التي يستمسكون بها ويدعون الناس إليها ، كانت هذه الحفنة هي نواة الجماهير الضخمة الخصبية التي زعموا أن رسول الله يخدرها ويسكنها لمصلحة الرأسماليين ! ماذا فعل المخدر بهذه الحفنة ياهؤلاء ؟ لقد سجل القرآن ما كانوا عليه من هوان وقلة ثم ماصاروا إليه من جاه وعزة ، فقال سبحانه : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض .. تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم .. وأيدكم بنصره .. ورزقكم من الطيبات لعلمكم تشكرون » .. لقد كانوا قلة فيكمثروا ، وكانوا مستضعفين فانتصروا ، وكانوا فقراء لاصقين بالتراب ففتحت لهم كنوز الأرض وخزائن الدنيا ؛ هذا ماسجله القرآن لهذه الحفنة العاملة ، وهو ماسجله التاريخ ، ولا حيلة في إنكاره ، أو إخفاء أنواره . وعهدنا بالمخدر المأجور ياهؤلاء أن يستولى على السكينة فينتهى بها إلى القلة ؛ ثم ينتهى بالقلة إلى القضاء . أما أن يستولى على القلة فتغدو بعون الله ، جمهرة غليظة ضخمة . ثم يسمى بعد ذلك مخدرا ، فتلك دعوى لا يستعلن بها إلا ممسوخ العقل ممسوخ الأدمية .

وعهدنا بالمنوم ، يستولى على الجموع القوية المخوفة ، فلا يزال يلعب بها لعبة ويبذر فيها بذوره ، ويسقي شعلها بالماء لا بالنقط حتى يصير البحر المتقد رمادا لا وميض فيه ولا خوف منه ، أما أن يستولى على المتفرقين فيجمعهم والضعفاء الهامدين فيجعل منهم الشهب المحرقة والسيول المتدفقة ، والقوة الخارقة التي تنتصر بالرب على مسيرة شهر ، ثم يقال إن نومهم لأهل الظلم والبغى ،

فهى ضلالة لا تجد من يعلنها إلا فى هذا القطيع الشائه الممسوخ
وماذا كذلك فى تحذير رسول الله للجماعات ؟
إنه نوم الفقراء لأهل الغنى والمال ويكفيك على هذا برهاناً
أن قد شرع لهم حقوقاً مقدسة فى أموال هؤلاء الأغنياء ثم وكل
إلى السيف أن يستنقذها من رقابهم كلما جحدوها . . ونوم الفقراء
لأنه انتقل بهم من الفقر المدقع إلى القصور الشاحخة والثراء الواسع
على ما تثبته حقائق التاريخ
والآن هل هى معجزة غيرت حال هؤلاء غير الحال ؟ أو هو
سحر أظهرهم للناس فى صور الملوك والأقيال ؟ أو هى المصادفة التى
توافق صاحبها برمية من غير رام ؟

لم تكن معجزة ، ولم يكن سحر ، ولم تكن مصادفة ، ولم يكن
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقائد الذى يقود الشعوب على غير
ما رسم الله من سنن الوجود . . وسنن الوجود مقدمات ونتائج ،
وأسباب ومسببات ، وسبيل تفضى إلى عواقب لا محالة . . وقد
رسم له ربه فيما رسم « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم فى الأرض وليكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلهم
من بعد خوفهم أمناً » ، فإله لا ينهض إلى هذه الخلافة ، وماله لا يعلم
أصحابه أن يؤدوا مراسيم هذه السيادة ؟ والدرس كلستان خفيقتان
على اللسان ، ثقيلتان فى ميزان الحقيقة : الإيمان .. والعمل !
الإيمان بالمثل الفاضلة . . والمعانى الروحية السكرية أو الإيمان
بالله واليوم الآخر .

ثم العمل النافع الذي يستمد روحه من هذه المثل فإذا اجتمع هذا الإيمان إلى العمل الطيب المشمر كانت النتيجة التي لا بد منها . .
النتيجة التي يروجوها ويحبها كل رجل نبيل فاضل وكل أمة نبيلة
فاضلة ، خلافة في الأرض . . وتمكين لما تعتمق من مبادئ الحق
أما الإيمان وحده فهو من أمانى العاجزين ولا نصيب لصاحبه
إلا الحرمان والهوان .

وأما العمل وحده فهو سبيل الجحيم وسنة الشياطين . .
وما نظن جيلا من الأجيال عمل ما عملت أوروبا ، ولكن
ما نظن جيلا من الأجيال كذلك بحق الله البركة من عمله وأذقه
الوبال بما صنعت يدها كما عهدنا بأوروبا « ولا يزال الذين كفروا
تصديقهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم » فلا بد للإيمان
من عمل ، ولا بد للعمل من إيمان ، وهذا ما جاء به الدين وطبقه
رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا القلة كثرة ، وإذا الضيق سعة
وبسطة وإذا الضعف المهين قوة ومنعة وتلك سنة الله ، ولن
تجد لسنة الله تبديلا .

أيها الناس لقد أمر الدين بالعمل وها أنتم هولاء ترونه يسمو
بآمال أصحابه ، فلا يرضى لأحدهم أن تكون همته رغيفا يأكله ،
أو لباسا يستره ، أو درهما يكثره — بل هيمنة على أرض الله ،
وخلافة كريمة على ما فيها من كنوز وأموال ، وقيام على شعوبها
بمبادئ العدل والخير والسلام . . وليس وراء ذلك أمل لآمل
« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

فهرست

إهداء الكتاب ٢ مقدمة الطبعة الثانية ٣ مقدمة الطبعة الأولى ٩

الباب الأول : مع النزول :

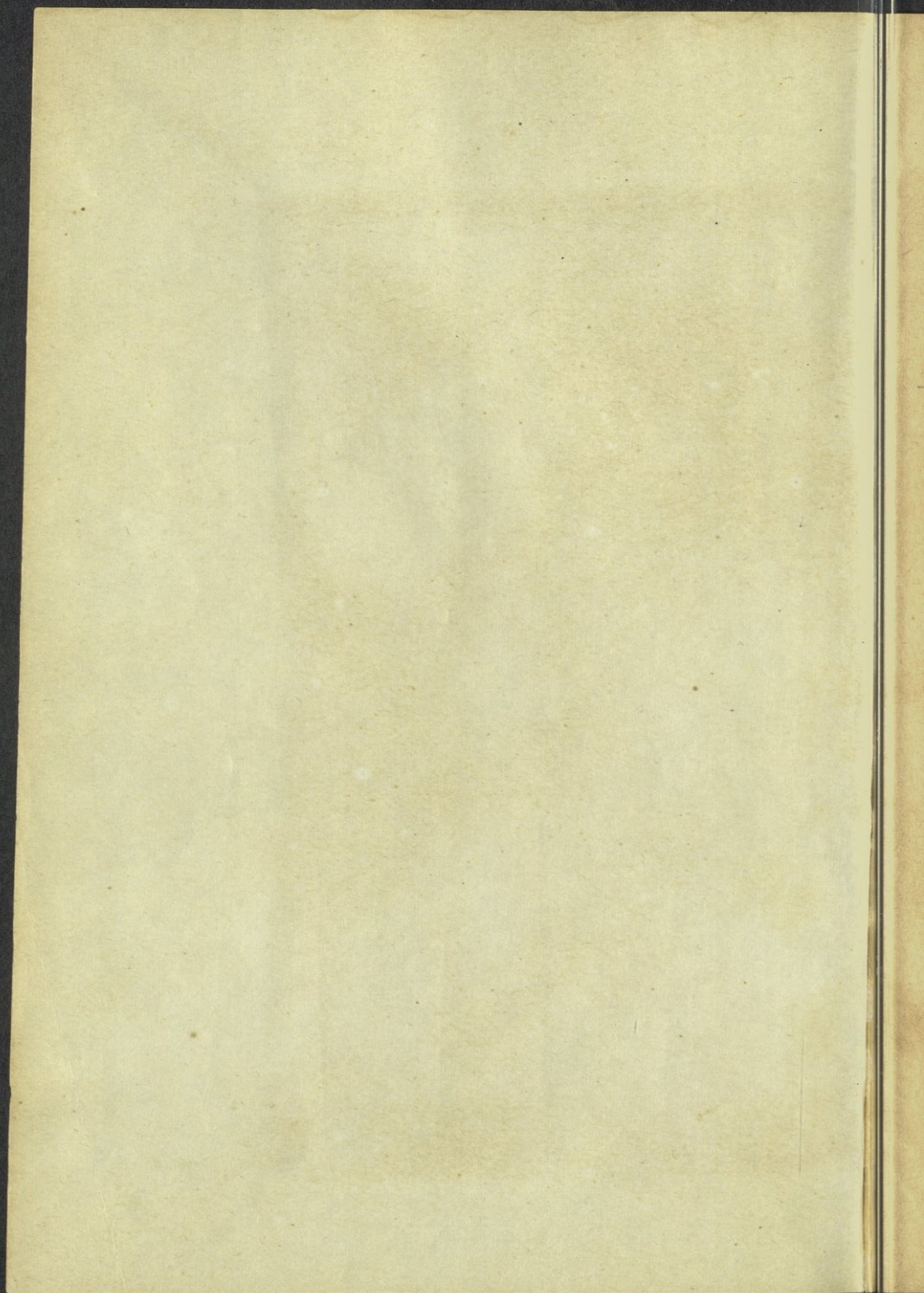
خلاصة وافية لمعنى الملكية وعناصر العدالة الاجتماعية ١٢ - ٣٤

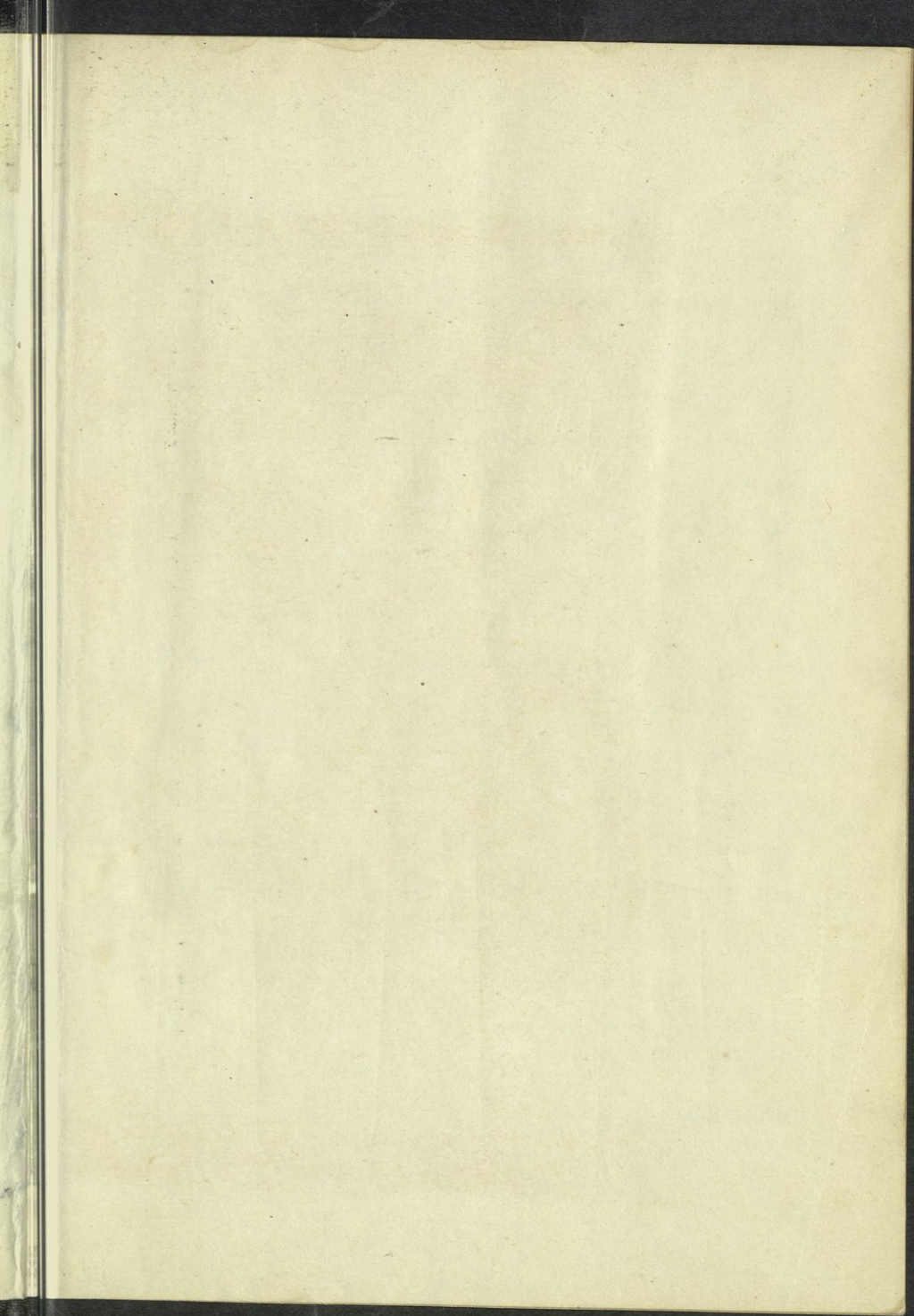
الله خالق الأرض . ليس لأحد منا فضل في خيرات الأرض فهى من الله للناس جميعاً . قصة تحريم الملكية والأجور عند الشيوعية . اصطدام هذا التحريم بغرائز البشر وسنن الاجتماع . يجب أن يكفل المجتمع لكل عامل أن يأخذ ثمر ما سعى . وجوب كفالة المريض ، والعاقل ، والشيخ القاعد ، واليتيم ، ومن تجعلهم النوازل في حكم غير القادرين . ملكيتنا للمال قائمة على ملكية الله له .

الباب الثانى : العمل والعمال (٣٦ - ١٥٨)

مائة وقانون ٣٥ - ٣٩ . ليست الأرض كالجنة يطاف فيها على أصحابها بالخير وهم على الأرائك . القرآن يقرر وجوب العمل .. النص على بذل أقصى مافي الطاقة . جعل لكم الأرض ٣٩ ، ٤١ . الفرق بين الذى يخدم الأرض ، والذى جعلت الأرض لخدمته . بين العمران المادى والروحى . الدين يبحث على العمل ٥٩ ، ٦٤ . نصوص من الأحاديث تبحث على الزراعة ، والصناعة ، والتجارة . الرسول ينشئ سوقاً إسلامية لتحرير الاقتصاد الإسلامى من استغلال اليهود . الدين يقدر العمل ٦٤ ، ٦٦ . إذا عمل المرء ليكف نفسه فهو فى سبيل الله . عمارة الأرض من الشعائر الواجبة .

العمل .. هو ثمن الحياة ٦٦، ٧٠ . لصوص الحياة يأكلون ولا يعملون .
 العمل .. حق لكل إنسان ٧٠ ، ٨٠ مسئولية الدولة عن إيجاد عمل
للعاطل . رعاية الدولة للعمال تعلمهم حب الوطن . انصاف الآلة في مصلحة معمل .
 الرسول يقرر حق العاطل في العمل . مبدأ تقدير الأجور ٨٠ ، ١٠٢ .
 وجوب تعيين قيمة الأجرة . العمال الذين يعملون لحساب أنفسهم . حقوق
 العمال الذين يعملون مع صاحب العمل في بيته . الأخوة هي العلاقة الروحية
 بين العامل وصاحب العمل . العمل الشريف لا ينقص من قدر صاحبه
 ولو كان خادماً في منزل . موسى عليه السلام خرج من بيت مخدومه
 ليحمل رسالة التحرير . الحد الأدنى للأجر . مراعاة مستوى بيئة كل
 عامل في ذلك . لا يقل الحد الأدنى عن الكفاية من الطعام واللباس ،
 والسكن . الإسلام يكفل لمن لا يستطيع الزواج أن يتزوج . ويقرر حقوقاً
 أخرى . الإسلام وتحديد ساعات العمل . الإسلام والأجور الإضافية .
 آفات العمل ١٠٢ ، ١٤٧ . الإسلام يحارب استعباد العمال بأكل حقوقهم .
 عمر يضع قدمه على حدود الظلمة . شركاتنا وأسواق النخاسة . ماذا يلقي
 العامل في الشركات الكبرى ؟ . الشركات تجعل القوانين العمالية حبراً على
 ورق . أرباب الجاه وعضوية الشركات . التفاتيش أو أعشاش الشيوعية .
 معنى كلمة « تفاتيش » . عيشة البؤس والجهل والمرض في هذه التفاتيش .
 تفاتيش سخا نموذج حياة القرون الوسطى . الصفقات الكبرى لتأجير
 الأراضي . لا يستأجرون الأرض ، ولكن يتاجرون في الأحرار عقود
 الإيجار البيضاء . كلمة أخيرة ١٤٧ ، ١٥٨ . العمل والزهد . الإسلام
 وتخدير الشعوب .





330.192:K45iA:c.1

الخولى، البهى
الاسلام لا شىوعية ولا رأسمالية، العمل

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01015431

American University of Beirut



330.192
K45iA

General Library

